(٩٢) أبو سعيد بن أبي الخير[١]

ذكر الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير نوّر الله تربته:

كان رحمه الله في عهده سلطانَ المشايخ والأكابر، وما وصل إليه أحدٌ من المشايخ إلاّ اعترفَ بفضله، ولم يُنقلْ من أحدٍ منهم مقدارُ رياضاته وكراماته، وكان عالمًا بأنواعِ العلوم، كاملاً فيها.

نقل أنه حفظَ في أول الأمرِ ثلاثين ألف بيتٍ تقريبًا من شعر العرب، وفي علم التفسير والحديث والفقه، وفي علم الطريقة كان ذا حظٍّ وافرٍ، وفي معرفةِ عُيوبِ النفس، ومُخالفة الهوى في أقصى الغاية، وفي الفقر والغنى تحمّل الذلَّ، له شأنٌ عظيم، وفي التلطُّفِ والمُداراة آية، ولذا قيل: أَينما يُذكرُ الشيخُ أبو سعيد رحمه الله، تَطيبُ أوقاتُ السامعين.

ونقل أنّه ما قال مدّةَ حياته (أنا)، و(نحن) قطُّ.

ونقل أنّ أباه كان عطّارًا، واسمه أبو الخير، وكان بين أبيه وبين السُّلطان محمود الغازي رحمه الله معرفةٌ وصداقة إلى أن بنى بيتًا مُزوَّقًا، وصوَّرَ الحيطانَ والسُّقُفَ بصُورة السلطان وأجناده، وصورة النيل، وكان الشيخُ أبو سعيد رحمه الله طفلاً، فالتمسَ من أبيه أن يَبني له أيضًا بيتًا، فبنى له بيتًا، فدخل فيه أبو سعيد رحمه الله، وكتبَ على جميع حيطانه لفظةَ الجلالة ـ أي لفظة (الله) ـ

---

(١) الأنساب ١١/ ٥٨٠ (الميهني)، اللباب ٣/ ٢٨٥، طبقات السبكي ٥/ ٣٠٦ (فضل الله بن أحمد بن محمد)، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٢٢، طبقات الأولياء ٢٧٢ (فضل الله بن أحمد بن علي)، النجوم الزاهرة ٥/ ٤٦، كشف المحجوب ٣٦٢، ٣٧٧، ٤٧٣، ٥٦١، ٥٩١، نفحات الأنس ٤٢٩، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٤٥، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٥، وانظر كتاب: «أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد» لابن منور، ترجمه من الفارسية إلى العربية: د. إسعاد عبد الهادي.

فقال له أبوه: لماذا كتبتَ (الله) على الحيطان؟ فقال أبو سعيد رحمه الله لأبيه: أنت صوَّرتَ حيطانَ بيتك بصورة سلطانك، وأنا نقشتُ حيطان بيتي باسمِ سلطاني. فلمّا سمعَ أبوه كلامَه، ندمَ على ما فعلَ، وشرعَ بمحو الصور عن الحيطان، فمحاها، وأحبَّ أبا سعيد أقوى ممّا كان يُحبّه[١].

نقل عن أبي سعيد رحمه الله أنه قال في أيام الصِّبا: إذ كنتُ مشغولاً بتعلّم القرآن، فذهبَ بي أبي يومًا من أيام الجمعة إلى الجامعِ، فالتقانا في الطريقِ الشيخُ أبو القاسم بن بشر، وكان من كبار مشايخ العصر، فقال لأبي: كنتُ أرى العَرصةَ خاليا عن مستحقِّ الولاية؛ ولكنْ لمّا رأيتُ ابنك أبا سعيد اطمأنَّ قلبي، لأنّي رأيتُ فيه بالفِراسة سيصيبُ منه النفع إلى كثيرٍ من أهل العلم. قال هذا، وأشارَ إلى أبي أن يُذهبني إليه بعد الصلاة، فلمّا قضينا الصلاةَ، ذهبنا إليه، ودخلنا عليه، وسلّمنا على طريق العادة، فردَّ الجوابَ، وقال لأبي: ارفعْ أبا سعيد ـ [وأشار][٢] إلى طاقةٍ عاليةٍ كانت في صومعته ـ فإنَّ هناك قرصًا لينزلَهُ. فأنزلتُ القرصَ، فإذا هو من الشعيرِ، وحارٌّ بَعْدُ بحيث حرارتُهُ تؤثّرُ في يدي، فأخبرتُه، ودمعت عيناه، وكسره نصفين، وناولني النِّصفَ، وأكلَ هو النصف، وما أعطى أبي منه شيئًا، فقال أبي: يا شيخ، لِمَ ما أَطعمتني من هذا القرص شيئًا لأتبرَّكَ به؟ فقال الشيخ أبو القاسم رحمه الله: إنّي من ثلاثين سنة قد وضعتُ هذا في الطاقة، ووعدني بعضُ الأولياء أنَّ هذا القرص إذا حَمِيَ في يدِ أحدٍ، فيسلمُ له حديثُ الولاية. فقال: لك البشارةُ يا أبا الخير، فإنّ ذلك الشخصَ إنّما هو ابنك. ثم قال: يا أبا سعيد، إن كانتْ همَّتُكَ مع الله طرفةَ عَينٍ، فذلك خيرٌ لك ممّا طلعَتْ عليه الشمس. وقال أبو سعيد: قال الشيخ أبو القاسم: يا ولدي، يجب أن تذكرَ الله تعالى؟ قلتُ: نعم. فقال: قل هذا الشعرَ في الخلوة كثيرًا.

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢، ٣٣.

(٢) ما بين معقوفين لإيضاح الكلام.

من بي تو دمي قرار نتوانم كرد إحسان ترا شمار نتوانم كرد
يك شُكْر تو أز هزار نتوانم كرد گر بر تن من زبان شود هر موئي

معناه: أنا لا أقدرُ على القرار بعدكم، بل قراري واستقراري بكم، ولا أطيقُ على إحصاء إحسانِكم، وذلك لتجاوزه عن حدِّ الإحصاء، فإن صارَتْ كلُّ شعرةٍ على جسدي لسانًا، فلا أقدر أن أذكرَ من كلِّ ألفِ شكرٍ واحدًا.

قال: فلازمتُ على إنشاء هذا الشعر وتكرارِه في الخلوة ليلاً ونهارًا حتى انفتحَ عليَّ طريقُ الحقِّ في الصِّبا[١].

قال: رجعتُ يومًا من الكتّاب إلى البيت، فوصلتُ في الطريق إلى رجلٍ أعمًى، فدعاني إليه، وقال: ماذا تقرأ؟ قلتُ: الكتاب الفلاني. فقال: قال شيخ المشايخ: حقيقةُ العلم ما كشفَ على السرائر. والحال أنّي ما علمتُ معنى (الحقيقة) ولا معنى (الكشف) إلاّ بعد ستين سنة[٢].

نقل أنه رحمه الله ارتحل إلى مرو، ولازم مجلسَ الشيخ عبد الله الحصري[٣] رحمه الله خمسَ سنين، واشتغل بالتحصيل، وبعد وفاة الحصري رحمه الله اشتغل على الإمام القفّال[٤] رحمه الله خمس سنين، بحيث كان ليلاً ونهارًا مشغولاً بالتحصيل والتكرار، ثم جاء يومًا إلى المجلس وقد احمرَّتْ عيناه، فاتَّهمه بعضُ الحاضرين بشيءٍ، فوكلَ عليه الإمامُ شخصًا ليتفحَّصَ عن حاله، فرآه ذلك الرجل بالليل أنّه علَّقَ جسدَهُ مَنكوسًا في بئرٍ، واشتغل بالذكر حتى سالتِ الدمُ من عنقه، فذكر له الإمامُ في ذلك شيئًا من حاله، فلمّا علم أنّهم اطّلعوا عليه، ارتحل من مرو إلى سرخس، وتعلّق بالشيخ أبي علي الزاهد رحمه الله، واشتغل عليه، وكان يقرأُ في يوم درس ثلاثةَ أيام، ويشتغل الأيام الثلاثة بالعبادة.

---

(١) أسرار التوحيد ٣٤، ٣٥.
(٢) أسرار التوحيد ٣٦.
(٣) في أسرار التوحيد ٤٠: أبو عبد الله الخضري.
(٤) في الأصل: الإمام البقال، والمثبت من أسرار التوحيد ٤٠.

قال رحمه الله: بينا أنا أمشي يومًا، التقيتُ بلقمان السرخسي قاعدًا على الرماد، ويرفع الفروة الخَلقة التي له، وفي حواليه الزبلُ والنجاسة، وكان رحمه الله من عقلاء المجانين، فلمّا وقعَ عليَّ نظرُهُ رمى إليَّ قطعةً من النجاسة، ثم قال: يا أبا سعيد، أُخيطك على الفروة؟ قلت: نعم. فضربَ تضريبات، وقال: هذه باسمك[١]. ثم انتهضَ من مكانه، وأخذ بيدي، وتماشينا، فانتهينا إلى الشيخ أبي الفضل [بن] الحسن، وكان وحيدَ عصره رحمه الله، فقال: يا أبا سعيد، ليس طريقَك. فلقمان رحمه الله سلّمني إليه، وقال: خذْ، فإنّه منكم لأنه ـ أي الشيخ أبا الفضل ـ من العقلاء.

قال أبو سعيد رحمه الله: فتعلقت بالشيخ أبي الفضل رحمه الله، فقال الشيخ أبو الفضل: يا أبا سعيد، اعلمْ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام على كثرتهم بُعثوا لأجلِ مقصودٍ واحدٍ وهو أن يُعلّموا الخلقَ أن يقولوا: (الله)، فمن كان له سمع يقول: (الله) حتى استغرق فيها، وظهرت الكلمةُ على قلبه، فاستغنى عن اللسان. قال أبو سعيد رحمه الله: فاصطادني هذا الكلام، حتى سلب عنّي النوم والقرار، ثم حضرتُ اليوم الثاني مجلس أبي علي صادفته يفسّرْ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فظهرَ في قلبي شيءٌ، وأخذني منّي، وتغيَّر عليَّ حالي، فأدرك أبو علي تغيّري[٢]، وقال: أين كنت البارحة؟ قلتُ: عند الشيخ أبي الفضل، ثم رجعتُ إليه والهًا متحيِّرًا في هذه الكلمة، فلمّا رأى الشيخُ أبو الفضل قال: يا أبا سعيد، قد سكرت ولا تدري الخلفَ عن القدّام. قلت: وكيفَ أعملُ يا شيخ؟ قال: ادخل، واقعد، واذكر هذه الكلمة. فأمرني الشيخُ أن أرجعَ إلى مكان مَيْهَنَة، وهي قريةٌ من قرى خراسان[٣]، وآثرتُ الخلوةَ سبعَ

---

(١) في أسرار التوحيد ٤١: وكان الشيخ قد وقف بحيث وقع ظلّه على ثوب لقمان، وعندما خاط الرقعة، قال لي: يا أبا سعيد، لقد خطك مع هذه الرقعة على هذا الثوب.

(٢) الأصل: أبو علي بغيرتي.

(٣) ميْهَنَة: قرية من قرى خابران، وهي ناحية بين أبيورد وسرخس. معجم البلدان، وقد ضبطها السمعاني في الأنساب بكسر الميم. وفي الأصل: مهينة. وكذا سترد في كل ترجمته محرفة.

سنين، وسدّيتُ أذني، ولا أزالُ أقول: (الله) (الله) فكلّما تغيّرني غفلةٌ، كان يظهرُ عليَّ شخصٌ أسود من المحراب، وبيده حربةٌ في غاية المهابة، ويصيحُ عليَّ ويقول: (الله) (الله) إلى أن سمعتُ من جميع ذرّاتِ وجودي أنّها تقول: (الله)، (الله)[١].

نقل أنه كان رحمه الله له قميصٌ في تلك المدة، وكلّما كان ينقطعُ كان يرقّعه، حتى ثقل وصارَ وزنه فوق عشرة أرطال، وكان صائمًا، ويفطرُ على كُسيرةِ خبزٍ يابس، وكان لا ينام ليلاً ولا نهارًا، ويغتسلُ كلَّ صلاةٍ، ثم كان يدخلُ بعضَ الصحارى، ويُصبح شهرًا، ويُفطرُ على الحشيش، وأبوه يمشي في طلبه، ويردُّه إلى البيت[٢].

قال أبوه: كنتُ أقفلُ الباب، وأنتظره لينام، فحين كان يتّكىء كنتُ أنام، وعند استيقاظي في جُنح الليل، ما كنتُ أجدُهُ في مكانه، ولا في البيت، البابُ مقفولٌ كما كان، لكن يجيءُ في السحر، ويدخل البيتَ، وينزل في زاويةٍ، فتبعتُهُ في بعض الليالي إلى أن دخلَ مسجدًا خَرابًا، وأغلقَ البابَ من الداخل، وكان فيه بئرٌ، فأخذ حبلاً، وشدَّ أحدَ طرفيه على عودٍ، ووضع العودَ على رأس البئر عرضًا، وشدَّ الطرفَ الآخر على رجليه، ودلّى نفسَه في البئر معكوسًا، وشرعَ يقرأُ القرآن إلى أن ختمه، وأنا على الباب، أنظرُ من الشقِّ، ثم خرج، وأنا رجعتُ إلى البيت، ودخلت الفراش على العادة، فجاء أبو سعيد كما كان، وهكذا كان يفعلُ ليلاً على ليلٍ[٣].

نقل أنه رحمه الله كان يخدمُ الفقراءَ، ويكنسُ المبارز، ويتكدّى، ويصرفُ على الفقراء والمساكين كلَّ ذلك لأجلِ كسرِ النفس، وإذا يظهرُ له إشكالٌ كان يَمشي مُعلّقًا بين الهواء والأرض إلى سرخس، ويعرضه على الشيخ

(١) أسرار التوحيد ٤٣.
(٢) أسرار التوحيد ٤٥.
(٣) أسرار التوحيد ٤٨.

أبي الفضل، ثم أرسلَهُ [إلى] الشيخِ أبي عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله حتى ألبسَهُ الخرقةَ، ثم رجع إلى الشيخ أبي الفضل، فأشار إليه الشيخُ أبو الفضل رحمه الله بأن يرجع إلى قرية مَيْهَنَة، ويرشدَ الخلقَ، ثم ضاع رحمه الله بعد هذا سبعَ سنين في صحراء خاوران[١]، ولم يأكل في هذه المدة إلا ورق شجيرات الطَّرْفاء[٢] وزهرها، وتُخالطه السباع والوحوش، وكان رحمه الله كالسكران، لا يُؤثِّرُ فيه الحرُّ ولا البرد ولا هو يبالي بهما، ثم إنه همَّ بالرجوع إلى مَيْهَنَة وإرشاد الخلق، فامتثلَ أمرَ الإلهام، وسكن مَيْهَنَة، وترقّى شأنُهُ، واشتهر أمرُهُ وحصلَ له قبولٌ إلى أن اشتروا قشرة البطيخِ التي رماها الشيخ رحمه الله بعشرين دينارًا، قال: ثم بعد هذا القبول هبَّتْهُ ريحُ الغيرة من وراء أستار العظمة والكبرياء، فعكستْ حالي، وشوَّشتْ بالي، وزادتْ حزني وبلبالي، فردّني من قلبي منهم، وشرع يذلّني من كان يعزّني، ويُحقّرني من كان يُكرمني، حتى شهدوا عليَّ بالكفر والجنون، وإلى [أيِّ] أرضٍ أدخلُها كانوا يقولون: هذا المشؤوم منحوس، كاد لا ينبتُ النبات، ولا يثمرُ الشجر من شؤمه، إلى أن دخلتُ يومًا في مسجدٍ، فجاءت جماعة من النساء، وصببنَ نجاسةً على رأسي، فسمعت قائلاً يقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ [فصلت: ٥٣] قال: الحاصل أنه حين كنتُ مقبولاً لم تكن حينئذٍ واقعةٌ في الدنيا مثلاً إلاّ كانت تنحلُّ بيدي، ولما صرت منبوذًا ما كانتْ عجوزةٌ في بيتها [ترمي] رمادًا إلاّ كانتْ تُريدُ أن تصبَّ على رأسي، وأنا في الحالتين مُطمئنٌّ ناظرٌ إلى الحقِّ جلَّ جلاله، معتمدٌ على كرمه، ثم وقعَ في قلبي أن أتوجَّه إلى الشيخ أبي العباس القصاب؛ فإنّه كان من بقيّة المشايخ، والشيخُ أبو الفضل رحمه الله ما كان باقيًا، فقصدتُهُ وأنا في قبضٍ عظيم، فوصلتُ في الطريق إلى شيخٍ فانٍ يزرع، فلمّا رآني قال: يا أبا سعيد، لو ملأ الله تعالى العالمَ من الأرزن، ثم يخلق طيرًا، ويأمره بأن يلتقطَ في كلِّ ألفِ سنةٍ أرزنةً واحدة، ويخلق شخصًا، ويضعُ في صدره هذه الخرقة، ويقول له:

---

(١) خاوران قرية في نواحي خلاط (قصبة أرمينية الوسطى).

(٢) الطَّرْفاء: شجر للتزيين. متن اللغة.

ما لم يُتمَّ هذا الطيرُ الأرزن كلَّه لا وصولَ لك إلى المقصود، وأنت في جميع هذه المدة تبقى في هذا الأحزان، لهانَ الأمرُ، وطاب الشأن[١]. قال أبو سعيد: ارتفعَ عنّي القبضُ، وانحلّتِ العقدةُ، ثم وصلت إلى الشيخ أبي العباس القصاب بآمل، ومكثتُ عنده مدَّةً، وأعطاني أبو العباس رحمه الله مخزنًا في مقابلة بيته، وكان أبو العباس في صومعته مَشغولاً بالليل والنهار بالعبادة، وأنا في مخزني مشغولٌ بالمجاهدة، وكنت أُراعي البابَ وقتَ دخول الشيخ أبي العباس وخروجه، فاتَّفقَ للشيخ أبي العباس أن افتصدَ وانحلَّ الشدُّ بالليل، وانفتحَ الفصدُ، وتلّوث ثوبُهُ بالدم، فخرج الشيخُ في وسط الليل حتى قصدَ غسل الدم، وكنتُ مُراقبًا له، فأسرعتُ إليه، وغسلتُ الدَّم من يده، وشددتُ موضع الجراحةِ بخرقةٍ نظيفة، وخلعَ الثوب الذي كان عليه، ولبس خريقتي، وأنا بالليلِ غسلتُ خرقتَهُ ونشَّفْتُها، وجئتُ بها إلى الشيخ، فأشار إليَّ بأن ألبسَها، فأخذها بيده وألبسني، فلمّا أصبحنا رأى الأصحابُ خرقةَ الشيخ عليَّ، وخرقتي على الشيخ، فتعجَّبوا في هذا الشأن، فقال الشيخ: لا تتعجَّبوا، فإنَّ البارحة نُثِرَتْ عليَّ إنعاماتٌ، وجميعُها صار نصيبًا لهذا الفتى المَيْهني ـ أي المنسوب إلى مَيْهَنَة ـ ثم أشارَ إليَّ بالرُّجوع، وقال: سيُنصبُ هذا العلمُ على بابك. فرجعت بحكمة إشارة الشيخ بفتوحٍ كثيرة، ولمّا وصلتُ إلى مَيْهَنَة تُوفّي الشيخُ أبو العباس رحمه الله[٢].

نقل أن أبا سعيد رحمه الله كان في غايةِ المُجاهدة والرياضة إلى أربعين سنة حتى أنه تأهَّلَ ـ أي تزوّج ـ وولد له ابنٌ سماه أبا طاهر، وهو في حالة عجيبة من الرياضة والاجتهاد.

نقل أنه قال: جاوز الاجتهادُ حدَّه، ولم يكن مقصودي يحصلُ، ولا الحجاب كما ينبغي يرتفعُ، حتى دخلتُ ليلاً في الخانقاه، وأم أبي طاهر

---

(١) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٥٧: وستظلُّ تكابد ما أنت عليه من ألم ووجد، فإنّ هذا الأمر سرعان ما ينتهي..

(٢) أسرار التوحيد ٥٠ـ٦٨.

معي، فأمرتها بأن تشدَّ رجلي، ففعلتْ، وعلّقتني منكوسًا، وخرجَتْ من الخانقاه، وأغلقتِ الباب، وأنا شرعتُ أقرأُ القرآن، والدمُ بدلَ الدمع أخذ يجري على وجهي، وكادتِ العينُ تنقلع، قلت: نفسي، لا أُريد العين، بل إذا حصلَ المقصودُ، فأفديه بألف عين، ثم جرى الدمُ من عيني على خدّي حتى وصلَ إلى الأرض، وأنا انتهيتُ في القراءة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فما رأيتُ إلاّ أن انفتحت أبوابُ المراد، ووضعوا نقدَ المقصود في حجري، فصحت: أمَّ أبي طاهر، فأتت لترى[١].

وقال رحمه الله: طلعتُ جبلاً نوبةً، وجلستُ على صخرةٍ في شفير وادٍ عميق، ما كان أحدٌ يستجري أن ينظرَ من العلوِّ إلى السفل، وألزمتُ نفسي بأن أقرأَ القرآنَ من أوّله إلى آخره على تلك الصخرة، وخوَّفتُها من النوم مخافةَ الوقوع، ثم في ﴿السجدة﴾ غلبني النومُ، فإنَّ الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، فما وجدتني إلاّ واقعًا من الصخرة بين السماء والأرض، فاستغثت اللهَ تعالى، فأغاثني وردَّني إلى الصخرة قبل أن أنزلَ إلى الأرض[٢].

نقل أنه قال رحمه الله: إنّي أوجبت على نفسي ثمانية عشر شيئًا في ابتداء الحال، ودفعتُ عنّي ثمانية عشر ألف عالم: الأول: الصومُ على الدوام، والثاني: الاجتنابُ عن المعاصي والمناهي والآثام، والثالث: الذِّكرُ، في الليالي والأيام، والرابع: السهرُ الدائم والناس نيام، والخامس: أن لا أتّكىءَ على الأرض ولا أنام إلاّ قاعدًا إن غلبني النوم، وأن لا أجلسَ إلاّ مستقبلَ القبلة، ولا أنظرَ إلى أمردَ، ولا أَنظرَ في الصلاة إلى المحراب، ولا أسألَ عن أحدٍ شيئًا، وأكونَ قانعًا في مقام التسليم، وأواظبَ على الجلوس في المسجد، وأن أختمَ القرآنَ في كلِّ يوم وليلة، وأكونَ أعمًى أصمَّ أخرس، سمّوني مجنونًا واحتملته، وما بلغني عن النبيِّ عليه السلام من العبادة والطاعة سعيت في أن

(١) انظر أسرار التوحيد ٥٢.

(٢) أسرار التوحيد ٤٦.

عملته حتى بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ صلّى وهو قائمٌ على رؤوس الأصابع[١]، فتابعته، وصلّيت أربع مئة ركعة وأنا قائمٌ على رؤوس الأصابع، وما نُقل من عبادة الملائكة تابعتُهم فيه، حتى أتيتُ بجميع أنواع عباداتهم حتى عبدتُ الله تعالى وأنا منكوسٌ، وختمتُ القرآنَ وأنا منكوس.

نقل أنه رحمه الله نزلَ يومًا تحت شجرِ الخِلاف[٢]، ونصب له خيمةً، وجاريةٌ تركية تغمزُ رجليه، والجلابُ في القدح موضوعٌ عند رأسه، والحال أن تلميذًا من تلاميذه كان واقفًا في الشمس، وعليه فروةٌ، وعرقَ عرقًا شديدًا، وضعف ضعفًا قويًا، فخطر بباله: أنَّ هذا عبدٌ، وهو في غاية الذلِّ والاضطراب، فصاح عليه الشيخ وقال: يا فتى هذه الشجرة التي تراها ختمتُ القرآنَ تحتها سبعين مرة، وأنا معلّقٌ عليها منكوسًا.

نقل أن فتىً من أولاد الأكابر جاء إلى الشيخ ولازمه، وقد ورث من أبيه مالاً كثيرًا سلّمه إلى الشيخ رحمه الله، والشيخُ أنفقه إلى الفقراء في يومه، لأنَّ الشيخ رحمه الله ما كان يتركُ شيئًا للغد، وأمره بالصومِ والذكر، وقيامِ الليل على الدوام، وأمره بخدمة المبرزِ سنةً، ثم أمره بخدمة الفقراءِ سنةً أُخرى، ثم أمره بالسؤال والدَّورانِ على الأبواب سنةً أُخرى، والناس كانوا يملؤون زنبيله لغاية اعتقادهم فيه، ثم بعد ذلك أشارَ الشيخُ إلى الأصحاب بأن لا يلتفتوا إليه، فشرعوا يطردونه ويجفونه ويتباعدون عنه، والناسُ أيضًا في هذه السنة ما كانوا يُعطونه شيئًا، والشيخُ في هذه المدة كان معه طيبًا، ثم أخذَ الشيخُ أيضًا في جفائه والغلظةِ عليه، وكان يزجرُهُ بين الملأ، ويقول معه بالخشونة إلى أن اتَّفَق أنه صام ثلاثة أيام مُتواترةً، ولم يأكل شيئًا، ودار على الأبواب، وما أعطاه أحد زبيبًا، وفي الليلة الرابعة كان في الخانقاه عند الشيخ دعوةٌ، وطبخوا طعمةً

(١) جاء في أسرار التوحيد ٥٢: سمعت أن المصطفى ﷺ جُرح في قدمه في غزوة أحد، فلم يستطع الوقوف عليها، فكان يُصلّي واقفًا على أطراف أصابعه وقد تقدمت هيئة هذه الصلاة صفحة: ١٩١، ٢٠٤، ٦٦٤.

(٢) الخلاف: شجر الصفصاف.

لذيذة، والشيخ قد وصّى المطبخَ والأصحاب أن لا يُطعموه شيئًا، ولا يدعوه بينهم، فجاء ذلك الفتى من السؤال، وما كان معه قليلٌ ولا كثير، كان جائعًا من ثلاثة أيام ولياليهن، فدخلَ المطبخَ، ولم يُطعمه الطَّباخُ شيئًا، وأخرجَهُ منه، وحين قدّموا الطعامَ إلى الأصحاب والجماعةِ دخلَ بينهم، ما تركوه أن يجلسَ معهم، ولا أطعموه شيئًا، ولا نظر إليه واحدٌ من الشيخ والجماعة، وهو واقفٌ ينظرُ إليهم، فبعد الطعام نظرَ إليه الشيخُ وقال: يا فلان، تصدُّ عنّا وتشوّشُ علينا، ولا تستحي، من أنت؟ من أين أنت؟ ثم أشار إلى بعض الحاضرين، وقال: اطردوا هذا المشؤوم من هذا المجلس، وإن دخلَ في الخانقاه بعد اليوم نفعلُ به شيئًا لم يُفعل بأحد. فقام شخصٌ، وهيَّجه من مكانه، وأخرجه من المجلس، وطرده من الخانقاه، وأغلق الباب، فخرج الفتى في غايةِ الجوع والعجزِ والمذلّة، والدمعُ يجري على صفحتي خدّيه، ولم يبق له أملٌ ولا رجاء من المخلوقين، ولا مالٌ ولا منصبٌ ولا جاه، وسمعَ من الشيخ والجماعة ما سمعَ، فدخل في مسجدٍ خراب، بقلبٍ جريح، وعينٍ قريح، ودمعٍ مسفوح، ووضع خدَّه على التراب، وتضرَّع إلى الله تعالى، وتوجّه إليه، وقالَ: إلهي، تعلم حالي ومذلّتي، وفقري وفاقتي، وضراعتي وحاجتي، وتنظرُ إليَّ، وتعلمُ أنَّ عبادَك كيف طردوني، وليس لي أحدٌ سواك أتضرَّعُ إليه، وأعرضُ حاجتي إليه، وليس لي مالٌ ولا عزٌّ، بل أنا عبدُك في سوءِ الحال وغايةِ البلبال، وأنت قادرٌ حكيم، تعزُّ من تشاء، وتذلُّ من تشاء، وتُعطي من تشاء، وتمنعُ من تشاء، بيدك الخير إنَّك على كلِّ شيءٍ قدير. وكان يبكي ويتضرَّعُ إلى [أن] ندّى أرضَ المسجد من دموعه، فاللهُ تبارك وتعالى نظرَ إليه نظرَ الرحمة، وفتح على قلبه أبوابًا إلى مقصوده، وأعطاه ما كان يتمنّى، والشيخ أبو سعيد رحمه الله جالسٌ بين الأصحاب في الخانقاه، فقام والجماعة معه، ومعهم جمعٌ، وذهب إلى داخل ذلك المسجد، فأبصر الفتى واضعًا خدَّه على التراب باكيًا متضرّعًا، فرفع رأسَه، ورأى الشيخ والجماعةَ معه، فقال: يا شيخ، لمَ تشوّشني؟ فقال الشيخ: يا فلان، تريدُ أن تأكلَ المائدة وحدك؟ فقال: يا شيخ، كيف كان قلبُك الشريف

يوافقُكَ في جفائي وإيذائي؟ قال الشيخ: إنّك كنت مُنقطعًا عن الخلق والأصحاب كلِّهم، وبقيتَ مُعتمدًا عليَّ، وأنا قدرت لك حجابًا بينك وبين الخلق، وما كان بقي لك حجابٌ سوى أبي سعيد، فلا جرمَ أنّي فعلتُ معك ما فعلتُ ليرتفعَ هذا الحجاب أيضًا، والحالُ أنه ارتفعَ، ووصلتَ إلى المقصود، ونحن جئنا إليك نُهنيكَ، بارك اللهُ لك في وصلك إلى مقصودك، وجعله لك مُباركًا، فقم معنا، رزقنا الله عيشة السعداء.

نقل عن الحسن المؤدب[1] الذي هو من خواصِّ خدّام الشيخ أبي سعيد رحمه الله أنه قال: كنت بنيسابور تاجرًا، فسمعتُ صيت الشيخ، فذهبتُ إليه، فلمّا رفع عليَّ نظره قال: تعال تعال، فإنَّ لي معك أشغالاً. والحالُ أنّي لم أعرفْ مقصودَهُ، ولا فهمتُ قصده، وكنتُ مُنكرًا للصوفية، ثم إن الشيخ رحمه الله في آخرِ الصحبة طلب لفقير ثوبًا، فوقع في خاطري أن أَعطيه عمامتي، ثم قلت في نفسي: إنّها أُهديت إلي من مدينة آمل، وقيمتُها عشرةُ دنانير، فلأجل هذا أمسكتُ، ثم نوبةً أخرى حدّثَ الشيخُ مثلَ الأول، فوقع أيضًا في قلبي أن أسمح بالعمامة، ثم ندمتُ، وهكذا ثالثًا ورابعًا، فقال شخصٌ من الحاضرين وكان قاعدًا في جنبي: يا شيخ، هل اللهُ تعالى يكلّمُ أحدًا؟ فقال: نعم، قد كلّم هذا الرجل الذي في جنبك في عمامة طبرية، وهو يقول: ما أجدُ في نفسي أن أسمح بها، لأنَّ قيمتَها عشرةُ دنانير، وأُهديت لي من آمل.

أقول: المرادُ من كلام الله تعالى في هذا المقام إنَّما هو الإلهامُ. يعني ألهمَ الله تعالى في قلبه ليجودَ بالعمامة، وهو يمتنع لما يلقى الشيطان في نفسه ما يلقي. [والله أعلم].

قال الحسن رحمه: فلمّا سمعتُ من الشيخ هذا الكلام وقعتْ عليَّ رجفةٌ، وأعطيتُ العمامة، وزال الإنكار من قلبي، وأتيت بمالي كلِّه إلى الشيخ، وهو

---

(١) في الأصل: الحسن المؤذن، والمثبت من أسرار التوحيد ٨٣، وانظر الفهرس ٤٥٤.

أنفقَهُ على المساكين، وأنا واظبتُ مجلسَه، ولازمتُ صحبته، وصرتُ من تلاميذه[١].

نقل عن شيخٍ من الصلحاء أنه قال: كنتُ في أيام الشباب مشغولاً بالتجارة، وكنتُ في قافلةٍ متوجِّهًا إلى مدينة مرو، وأنا سبقتُ القافلة ليلاً، وغلبني النومُ، فنمتُ، ولمّا انتبهتُ ما رأيت من الأصحاب أثرًا، وكان الأرض مرملاً، لا يوجدُ فيها علامةٌ، فعدوتُ من الجوانب، ولا اهتديتُ إلى الطريق، فضعتُ بالبادية، وزال عقلي، ودُهشتُ، ثم أفقتُ واخترت جانبًا، ومشيتُ حتى غلبني الجوع والعطش، وأثّرَ الضعفُ في جميع أعضائي، وكان في غاية الحرِّ، فصبرتُ إلى الليل، وسعيت في المشي جميعَ الليل، فلمّا أصبحتُ رأيتُ صحراءَ ما كان فيها إلا الشوكُ والعوسج، وما رأيت أثرًا لعمارةٍ، بل كانت مفازةً بعيدةً عن العمران، لا فيها ماءٌ ولا خضرة، وأثّر فيَّ الضعفُ والجوع والعطش، فوطّنتُ على الهلاك، وسقطتُ على الأرض، ثم قمتُ وجهدتُ حتى طلعتُ تلاً، ونظرتُ من الجوانبِ، ما رأيت من العمارة أثرًا، ولكنّي أَحسستُ من البعيد سوادًا، فمشيت إليه، فإذا هو مرجٌ، ففرحت وقلت: لعلَّ فيه ماءً، إذِ المرجُ قلّما يخلو عن الماء. فسعيتُ إليه بمشقَّةٍ عظيمة، فوجدتُ هناك عينًا، فشربتُ منه، وتوضَّأتُ وصلّيت، ثم أكلتُ شيئًا من الحشيش، وأقمتُ هناك يومًا وليلةً، ففزعتُ من السباع، فأويت إلى تلٍّ من الرمل بقرب المرج، وحفرتُ فيه حفرةً، ونزلت فيها، وغطّيتُ رأسَها بالحشيش، وأنا أنظرُ منها إلى الجوانب لعلّي أرى أحدًا، فرأيت بعد الزوال شخصًا طويلَ القامة أبيضَ اللون، واسعَ العينين، وله لحيةٌ طويلة، وعليه مرقعةٌ، وبيده عصا وإبريقٌ، وعلى كتفه سجّادةٌ، وعلى رأسه قبعٌ على صورة الصوفية، والنورُ يلوحُ من وجهه، وذهب إلى العين، وبسطَ السجّادة، وتوضَّأ وصلّى، ورجع، وأنا ندمتُ في حال أن ما ذهبتُ إليه، ولا حدّثته، ولا سلّمت عليه، ولا زلتُ ألومُ

(١) أسرار التوحيد ٨٣ وما بعدها.

نفسي إلى أن حان وقتُ العصر، فإذا أنا أراه جائيًا إلى العين، وقد حصلتْ لي جرأةٌ، فقمت إليه، وتشبّثتُ بأذياله، وقلت: يا شيخ، أنا رجلٌ تاجرٌ من مدينة نيسابور، وقد تخلّفتُ من القافلة لنومٍ غلبني، وكم يومٍ أنا ضائعٌ في هذه البادية! وهو مطرقٌ رأسَه، ثم قامَ وأمسك بيدي، وتماشينا خطواتٍ، فرأيت أسدًا عظيمًا طلعَ من البادية، وجاء إليه وخدمه، وتبصبصَ عنده، ووقفَ، فوضع فاه على أذنه، وقال معه شيئًا، ثم أركبني عليه، ووضعَ شعورَ رقبته بيدي، وأمرني بإمساكها، والاستمساكِ عليه، وقال: أينما يقفُ الأسد انزلْ. وأمرني بإغماض العين، ففعلتُ كما أمرَ، وسار إلى ساعةٍ ثم وقفَ، فنزلتُ، ورجع الأسد، فمشيتُ ساعةً، فرأيت القافلةَ نازلةً، ففرحت فرحًا شديدًا، وذهبت معهم إلى بُخارى، ثم رجعتُ إلى نيسابور، ولازمت دكّاني، ومضى عليَّ سنون، ثم اتّفقَ أن كنتُ عابرًا، فرأيتُ جماعةً مجتمعةً، وسألت عنهم، فقالوا: إن الشيخ أبا سعيد جاءَ، ويعظُ الناس. فدخلتُ بين الجماعة، ونظرت إليه، فإذا هو الرجلُ الذي صادفتُهُ عند مضيعي في البادية، وأركبني على الأسد، وأنا في هذا التعجّبِ، فنظر إلي وقال: يا فلان، أما سمعتَ أن ما يُروى في البوادي لا يُذكرُ في العمران. فشهقتُ شهقةً، وغاب عنّي عقلي، فما استفقتُ إلاّ وقد تمَّ المجلسُ، وعندي شخصٌ من الفقراء يمسحُ وجهي، فذهب بي إليه، وأنا تمرَّغْتُ بين يديه، وقبّلْتُ رجليه، وهو راعاني، وعهدتُ بكتمان هذا السرِّ ما عاش الشيخ رحمه الله[١].

نقل أنه كانت بنيسابور امرأةٌ جليلةٌ عابدة زاهدة[٢]، وهي من أهل بيت الأكابر، وكانت مدةَ أربعين سنة ملازمةً لبيتها بحيث ما طلعت منه قطُّ، ولا خطَتْ خطوةً خارجَ البيت، ولها خادمةٌ تقضي حوائج لها، وتدخل عليها إلى أن جاء الشيخ [فقالت لمربيتها يومًا: انهضي واذهبي إلى مجلس الشيخ][٣]

---

(١) انظر أسرار التوحيد ٨٤ وما بعدها.

(٢) اسمها ايشني نيلي: أسرار التوحيد ٩٥.

(٣) ما بين معقوفين مستدرك في أسرار التوحيد ٩٥.

واستمعي كلامه، واحفظي منه شيئًا، ثم خبّريني به، فحضرتِ الخادمةُ، وحفظتْ من كلامه بيتًا[١]، وحضرتْ به، فقالت المرأة للخادمة: اغسلي فاكِ؛ إذ ليس هذا كلامَ العلماءِ ولا الزهاد. وأنكرتِ الشيخَ، والحالُ أنّها كانت تُركِّبُ البرود[٢]، وتُداوي به العيون الهائجة، فاتّفقَ لها أن رأتْ في تلك الليلة منامًا هائلاً، فهاجتْ عيناها، وحصل لهما وجعٌ عظيم، فداوت عينها ببرودٍ، فلم ينفع، فاضطرَّتْ إلى أن عُرضت على الأطباء، وما أفادها شيئًا، والوجعُ كان يزداد لحظةً فلحظة، وهي كانت تصيحُ وتستغيثُ، فرأتْ في المنام نوبةً أخرى أنَّ قائلاً يقول لها: إنْ أردتِ شفاءَ عينيك، فاطلبي رضا الشيخ أبي سعيد. فأصبحت، وأخذت ألف درهم في كيس [وأعطته] للخادمةِ، وأمرتها بأن تذهبَ به إلى الشيخ بعد الرجوع من المجلس، ولا تحدّث شيئًا، وحين فرغَ من الكلام، ورجع إلى منزلِهِ جاءَ إليه فقيرٌ بخبزٍ يابس وخلال، وهكذا كان كلّ يوم، فيأكلُ شيئا من الخبز، فينظّفُ الأسنان بالخلال، فجاءتْ إليه الخادمةُ بالدراهم، ووضعت بين يديه، وما تكلّمتْ، وأرادتِ الرجوعَ، أعطاها الشيخ الخلال، وقال: قولي للعابدة أن تحرّكَ هذا الخلالَ في الماء، ثم تصبُّ الماءَ في عينها، فتطيب حينئذٍ عينُها الناظرةُ الظاهرة، وإن زالتْ عن ظلمة إنكارِ هذه الطائفة تطيبُ بإذن الله تعالى عينُها الباطنة أيضًا. فجاءتِ الخادمةُ إليها بالرسالة وفعلتْ ما وصّى الشيخُ، فطابت عينُها بإذن الله تعالى في الساعة، ثم في اليوم الثاني حوتْ جميعَ ما كانت لها من الحلي والنقد والجنس[٣] وأرسلتْه إلى

---

(١) ليس بيتًا؛ إنما هي رباعية نضّها كما في أسرار التوحيد ٩٥:

عندي حبَّةٌ ونصفٌ وهو قدرٌ ضئيل
وقد اشتريتُ قدحَيْنِ من النبيذ وهو قدرٌ ضئيل
لم تبقَ على عُودِنا نغمةٌ مُنخفضةٌ ولا عالية
فإلى متى تقولُ: إنَّ الفقرَ غمٌّ وهم

(٢) أسرار التوحيد: تصنع للناس مرهمًا للعين.

(٣) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٩٦: من الذهب والجواهر والملابس.

الشيخ، وهي بعزلةٍ لم تخرجْ من البيت أربعين سنة، ولا لبستِ الخفَّ في هذه المدّة، خرجتْ من البيت، وحضرتْ مجلسَ الشيخ، وتابت ورجعتْ عمّا أتتْ عليه من الإنكار، ثم سيَّرها الشيخُ إلى المربية أم [أبي] الطاهر، لتُلبسها الخِرقةَ، وصارت من الصوفية، ودامت على ذلك ما عاشت.

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله قبل أن يجيء إلى نيسابور رأى في المنام ثلاثين من أصحاب الأستاذ أبي القاسم القشيري والأستاذ أيضًا رحمهم الله تعالى، أنَّ الشمس تنزل من جبلٍ هناك إلى المدينة، وفي اليوم الثاني وقع الخبر أن الشيخ أبا سعيد ينزلُ من هذا الجبل، ويُريدُ الدخول في نيسابور، فأشار الأستاذ إلى الأصحاب أن يزوره، فقال أبو القاسم الثعلبي[1] وهو من كبارِ أصحاب الأستاذ: يا أستاذ لا يمكن خلاف الشمس، ثم الذين رأوا المنامَ كلُّهم زاروا الشيخ أبا سعيد رحمه الله، والأستاذ ما زاره، وجعل له اعتبار. فقال على المنبر يومًا: الفرق بيني وبين أبي سعيد أنَّه يُحبُّ اللهَ، واللهُ يحبُّ أبا القاسم، فهو كذّرةٍ، وأبو القاسم كجبل. ثم وصل هذا الكلام إلى أبي سعيد رحمه الله، فهو أيضًا قال على المنبر: إنَّ الأستاذ قد شرّفنا، وقال كذا، ونحن نقول إنه صادقٌ، هو جبلٌ والذرة أيضًا هو، وأمّا أنا فلستُ بشيءٍ. ثم وصل هذا الكلام إلى الأستاذ، فزاد الإنكار، وقال هو على المنبر: من يمشي إلى مجلس أبي سعيد فهو مهجور أو مطرود. فرأى في ليلته النبيَّ عليه السلام في المنام كأنَّه يمشي، وهو يقول: يا رسولَ الله، إلى أين؟ ويقول النبيُّ عليه السلام: إلى مجلس أبي سعيد رحمه الله، ومن لم يمشِ إلى مجلسه فهو مهجورٌ أو مطرود. فانتبه الأستاذ من النوم مرعوبًا متحيِّرًا، فقام وأراد أن يتوضَّأ ويتوجَّهَ إلى مجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وهو في أثناء الوضوءِ، فقال للجارية: انفضي الغُبارَ عن اللجام والسرج. ثم أتمَّ الوضوءَ، وركب قاصدًا لمجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فرأى في الطريق كلابًا مجتمعةً، ولهم عيطاتٌ وأصواتٌ،

(١) اسمه في أسرار التوحيد: أبو القاسم الروهباهي. انظر الفهرس صفحة ٤٥١.

فسأل الأستاذ رحمه الله، قيل: جاء كلبٌ غريب في هذه المحلّة، واجتمعتْ كلابُها عليه، وتؤذيه وتدفُعُه من مكانها. فاتّعظَ الأستاذ عنها، وقال: تركتُ السباعية وإيذاءِ الغريب، وها أنا أمشي إليه وأزوره. وتعجّب الخلقُ فيه، وكما دخل على الشيخ أبي سعيد رحمه الله وأبصرَ حشمتَهُ وحرمتَه وعزّتَه، فدار بباله أنّه لا يتأخّر عنه بالفضل والمعاملة، فمن أين له هذا الاعتبار والمقدار؟ فعلمه أبو سعيد رحمه الله بنور الولاية وقال: يا أستاذ، كان ينبغي لك أن تفتكرَ هذا حين قلتَ للجارية: انفضي عن اللِّجامِ والسرج الغبارَ، ولو نفضْتَ الغبارَ عن القلبِ لكان خيرًا. فطاب للأستاذ قلبُهُ ووقته من هذا الكلام، ولما نزلَ الأستاذ استقبله الشيخُ، واحتضن الأستاذ، وتعانقا، وارتفع الغبارُ من البَيْنِ، وزال الإنكارُ عن قلب الأستاذ، وحصل بينهما أشياءُ كثيرة، ثم قال الأستاذ على المنبر: من لم يتشرَّفْ بمجلس الشيخ أبي سعيد فهو مهجورٌ أو مطرود. وكان يقول: أقولُ الآن على ضدِّ ما قلت، وأقولُ جزاه الله تعالى خيرًا على معرفته وإنصافه[١].

نقل عن الأستاذ أبي القاسم رحمه الله أنّه لم يكن مُعتقدًا للسماع، وكان في بعض الأيام عابرًا إذ وصلَ إلى بابِ خانقاه الشيخ، وسمعَ صوت المغنيِّ عن مجلس الشيخ، فخطر ببال الأستاذ: أن الإكثار والمبالغة في السماع قادحٌ في العدالة، ومبطلٌ للشهادة، وعبر، ثم الشيخُ رحمه الله علم بالولاية ما خطرَ بباله، وذلك بإلهام الله تعالى وتقدّس، فأرسل إليه شخصًا في الحال، وقال له: قل للأستاذ: متى رأيتنا في محكمة القاضي نشهد لأحدٍ أو على أحد؟[٢].

نقل أن الأستاذ رحمه الله ولدَ له ولدٌ بالليل، ولم يُسمّه أحدٌ، فلمّا أصبحوا جاء شخصٌ إلى باب الأستاذ، وفتح الأبواب، وقال الأستاذ: ليس هذا إلاّ أبا سعيد. وكان إيّاه، فدخل وسلّم، وقال: أُخبرتُ بأن وُلِدَ لكم ولدٌ، ولم يكن

---

(١) أسرار التوحيد ٩٧، وانظر ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) أسرار التوحيد ٩٨.

لي إلاّ اسمي، فجئتُ أهنّيك بولادته، وآثرتُهُ باسمي. فسمّوه أبا سعيد، والأستاذ صنع دعواتٍ ثلاثة أيام شكرًا على هذه النعمة، وأطعمَ الفقراء أطعمةً كثيرة، وكان الولد صاحبَ حالٍ وهو في المهد، وذلك من بركة الشيخ أبي سعيد رحمه الله[١].

نقل عن الأستاذ أبي القاسم والشيخ أبا سعيد رحمهما الله اجتمعا ليلاً في بستان، وكان للأستاذ رحىً، جاء إليه الطَّحانُ، وكان يُحاسبُه في الدخل والخرج، ومضى على هذا من الليل بعضُه، وطال حديثُهما في ذلك، ثم في اليوم الثاني كانوا مجتمعين قعودًا، إذ دخلَ شخصٌ وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] قال الشيخ أبو سعيد رحمه الله: هذا كلامُ الله حقٌّ لا مريةَ فيه، ولكن اقرأه على هذا الذي كان البارحةَ يُحاسبُ حاصل الرحى. ثم توجّه الشيخُ إلى الأستاذ، وقال: يا أستاذ، وتسمع هذه الآية، فإنّ الله تعالى يدعُ الرَّحى معك، ويقول: الكلُّ لي، ولا شيءَ لك فيها. قال الأستاذ: نعم، ولكن الرحى إنما هي في اليدِ لا في القلب. قال الشيخ رحمه الله: ينبغي أن تكون اليدُ أيضًا خاليةً مثل القلب[٢].

ثم نقل أن الأستاذ رحمه الله لمّا حضرتْهُ الوفاةُ، ووقعَ في النزع، كان يبكي ويقول: نعمَ ما قال الرجل المَيْهَنيُّ ـ أي أبو سعيد ـ كان ينبغي أن تكون الآن يدي مثلَ قلبي.

نقل عن الأستاذ رحمه الله أنه خلعَ الخرقةَ عن فقيرٍ، وآذاه، ونفاه عن المدينة بسبب أنه عشق ابنًا لبعضِ أقارب الأستاذ، فسمع الشيخُ أبو سعيد هذا الحال، وصنعَ دعوةً، ودعا الأستاذ وجمعًا كثيرًا من الأصحاب، وأمرَ بطبخ أطعمةٍ كثيرة، ولوزينج بالسكر[٣]، وكان أبو طاهر ابن الشيخ ذا جمالٍ وحُسْنٍ وبهاء، وفقيرٌ من المُلازمين كان يعشقُهُ، ويحترقُ في محبَّته، والشيخُ كان خبيرًا

---

(١) أسرار التوحيد ٩٩.

(٢) انظر أسرار التوحيد ٢٣٩، ٣١٧.

(٣) اللوزينج: حلواء شبه القطائف، تؤدم بدهن اللوز. معرب. متن اللغة.

بالحال، ولكن كان يُخفيها إلى ذلك اليوم، ثم أمر ابنه أبا طاهر بأن يأخذ صحنًا من اللوزينج، ويمشي إلى الفقير في المجلس، ويلقّمه باللوزينج، ويأكل هو معه، ففعل الصبيُّ ما أمرَهُ أبوه، والفقير استحيا عن الشيخ وابنِهِ وعن الحاضرين، ومزّقَ خرقتَهُ، وشهق، وخرجَ من المجلس، فأشار الشيخُ إلى ابنه أن يتبعَهُ أينما يتوجّه، ويخدمَهُ، وإن كان توجّهه إلى الكعبة شرّفها الله تعالى، فأخذ عصًا وإبريقًا، وتبعه، فالتفتَ الفقيرُ، فأبصر أبا طاهر قد لحقه، وقال: أنا رفيقُكَ في هذا السفر. فرجعَ الفقيرُ إلى الشيخ، وتضرَّعَ إليه، وطلبَ منه أن لا يرافقَهُ ابنُهُ، وكان يتمرَّغُ على التراب، ثم منعَ الشيخُ رحمه الله ابنَه عن مرافقته، وسافر الفقيرُ، وقصدَ مكّةَ شرّفها الله تعالى، ثم قال الأستاذ: إذا أمكنَ هجرُ فقيرٍ، ودفعُهُ باللوزينج والسكر [أ]فلا يكون أهونَ وأحسنَ من إيذائه وتفضيحه؟ ثم قال: إنّما عملتُ هذا لأجل إرشادِك، وإلاّ مذ أربع سنين[١] كنتُ أَعلمُ حالَ الفقير وأسكت. فالأستاذُ ندمَ على ما فعلَ، واستغفرَ الله تعالى، وقال: الحمدُ لله على أن يتعلّم منك كلَّ يوم تصوّفًا آخر[٢].

نقل أن فقيهًا مُنكرًا للشيخ كان حاضرًا في مجلسه، فسأله، وقال: يا شيخ، تصحُّ الصلاة مع دم البراغيث، أم لا؟ فقال الشيخ: يا عالم، إنّ دمَ البراغيث إنّما هو هذا. أشار إلى ذلك الفقيه المنكر، فأسفرَ من الجمال والجلال والأنس والمحبة[٣].

نقل أنَّ بنت الأستاذ أبي القاسم كانت زوجةً للشيخ الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله، فطلبَتْ من زوجها أن تحضرَ مجلس الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وتسمعَ كلامَه، فأذنَ لها، وحضرتْ، وجلستْ على سطحٍ بين الناس، وعليها إزارٌ خَلق لئلا يعرفَها، والشيخُ شرعَ في الكلام، وفي أثناء الكلام نقلَ كلامًا عن

(١) في الأصل: مذ أربعين سنين.
(٢) أسرار التوحيد ١٠٤ وما بعدها.
(٣) أسرار التوحيد٢٥١.

الأستاذ أبي علي الدقاق، وقال: هنا بعضٌ من أبعاضه[١] حاضرٌ يسمعُ كلامي، ويعلمُ مقالي. فدهشتِ المرأةُ، وزال عقلُها، وسقطت من طرف السطح، فقال الشيخ: إلهي، ردَّها إلى مكانها. فبقيت معلّقةً في الهواء، فدلّتِ النساء أيديهن، وأمسكنَها، وجررنَها إلى السطح، وذلك ما كانَ إلاّ ببركةِ الشيخ، ودعاء أبي سعيد رحمه الله[٢].

نقل أنه كان بمدينة نيسابور إمامٌ كبير اسمه أبي الحسن التوني[٣]، وكان مُنكرًا للشيخ أبي سعيد، حتى كان يلعنُهُ، و[عند] ما كان الشيخ أبو سعيد في نيسابور، ما جاء الإمام أبو الحسن إلى خانقاهه، فأشار الشيخُ أبو سعيد رحمه الله يومًا إلى خادمه أن يُسرجَ بالفرس، وأراد أن يزورَ الإمام أبا الحسن، وجماعةٌ من الأصحاب يُنكرون عليه، ويقولون: كيف يزورُ شخصًا هو منكرٌ له ويلعنُهُ؟! ثم الشيخُ ومعه جماعةٌ من الأصحاب، ولكنْ[٤] سيَّرَ الشيخُ شخصًا إلى الإمام أبي الحسن ليخبرَهُ بإتيانِ الشيخ لئلا يكونَ على الغفلة، فلمّا أخبره الرجلُ شرعَ الإمام أبو الحسن بسبِّ الشيخ وبلعنه، وقال: لماذا يجيءُ إلينا؟ والمناسبُ لحاله أن يمشيَ إلى الدير؛ فإنّه موضعُه ومكانه. فرجع الرسولُ، وأوصل الخبر إلى الشيخ، وكان يوم الأحد اتفاقًا، وكان هناك ديرٌ للنصارى،

---

(١) كذا الأصل: ولعلّها: هنا بضع من أبضاعه.

(٢) أسرار التوحيد ١٠٢، ١٠٣.

(٣) في أسرار التوحيد ١١٦: أبي الحسين.

(٤) كذا الأصل، وفي أسرار التوحيد ١١٦ بعد قوله: ومعه جماعة من الأصحاب:

وفي الطريق خرج رافضيٌّ من منزله، ورأى الشيخ مع الصوفية، فأخذ يلعنُهُ، وأراد الصوفية أن يسيئوا إليه، فقال الشيخ: هوّنوا عليكم؛ فربّما رحمه الله بسبب هذه اللعنة. فقال الجميع: كيف يرحم الله شخصًا يلعنُ مثلك؟ فقال الشيخ: معاذ الله، إنه لا يلعنني؛ وإنما يظنُّ أنني على باطل، وهو على حقٍّ، فهو يلعنُ ذلك الباطل من أجل الله. وكان الرجل واقفًا يسمع كلام الشيخ، فسقط في الحال على أقدام الشيخ، وقال له: أيُّها الشيخ، لقد تبتُ، وأنت على حق وأنا على باطل، فاعرض عليَّ الإسلام لأسلم من جديد. فقال الشيخ للمريدين: أرأيتم أيَّ أثرٍ يكون للعنة تُلعَنُونها من أجل الله! وعندما اقتربوا أرسل الشيخ شخصًا...

واجتمعت جماعةٌ منهم فيه، فقبلَ الشيخ أبو سعيد كلامَ الإمام، وقال: يجبُ علينا امتثالُ أمر المشايخ وموافقتهم، وثنى عنانَ الفرس نحو الدير، وذهب إليه، ودخله، فتعجّب النصارى عن هذه الحركة، واجتمعوا عليه، ثم نظرَ الشيخُ رحمه الله إلى الحائط، فأبصر صورةَ عيسى عليه السلام ومريمَ عليها السلام منقوشةً عليه، فقال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ثم قال للصورتين: إن كان دينُ محمَّدٍ عليه السلام حقًّا، فاسجدا لله. فوقعتِ الصورتان على الأرض مُستقبلتَيْنِ للقبلة، فتحيَّرتِ النصارى، وقطع أربعون منهم الزَّنانيرَ، وآمنوا بالله على يد الشيخ، وتابوا، ثم التفت إلى الأصحاب وقال: من يقبلُ كلامَ المشايخ يؤولُ إلى مثل ما رأيتم، إذ لم يكن هذا الأمر إلاّ ببركة إشارةِ ذلك الشيخ. قال هذا الكلام، ورجع إلى الخانقاه ومعه الجماعةُ الذين آمنوا، ثم وصلَ الخبرُ إلى الإمام أبي الحسن رحمه الله من أوّلِهِ إلى آخره، فحصلَ للإمامِ حالةٌ، وأشار إلى الخادم ليحضرَ محفَّةً، فجلس عليها وذلك لضعفه من الهرم، وذهب إلى الشيخ أبي سعيد زائرًا له، وحين وصلَ إلى باب الخانقاه خرجَ من المحفَّة، وتوجّه إلى الشيخ مضطجعًا على الجنبِ إكرامًا واحترامًا للشيخ، والشيخُ أيضًا أكرمَهُ وأعزّه، وتاب الإمامُ عن يد الشيخ، ورجعَ عن الإنكار، وصار مريدًا للشيخ، وطابَ وقتُهُ، وحَسُنَ حالُه، وما ذاك إلاّ ببركة حلم الشيخ أبي سعيد نوّر الله مرقده[١].

ونقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان له مُريدٌ جبليٌّ غليظُ الطبع، وكان له صولٌ[٢] كثيرُ المسامير، عند دخوله في الخانقاه وخروجه يُطقطقُ ويشوّشُ على الصوفية، وهم كانوا يتأذّون منه، حتى أنَّ الشيخ طلبَهُ نوبةً، وأمره بالرَّواحِ إلى وادٍ في جبل عرفة، وذكر له علامةً، وقال في الموضع الفلاني من الوادي صخرةٌ كبيرةٌ، وينبعُ من تحتها ماءٌ، فإذا وصلتَ إليها توضَّأ أولاً، وصلِّ على الصخرة ركعتين أو أكثر، ثم توقّفْ ساعةً، فيأتي إليك شخصٌ من أصدقائي،

---

(١) أسرار التوحيد ١١٦ وما بعدها.

(٢) الصول جمعه أصوال: بابوج، ضرب من الأحذية. تكملة المعاجم العربية.

فسلّم عليه منّي. ففرحَ الرجل، وقال: أرسلني الشيخُ إلى وليٍّ من أولياء الله تعالى. فلمّا وصلَ إلى ذلك الموضع سمعَ طقطقةً وصوتًا هائلاً من جانب الجبل، نظرَ، فإذا ثعبانٌ عظيمة سوداء، ما رأى مثلَها قطُّ أحدٌ تنزلُ من الجبل، فرعب رعبًا عظيمًا، واسترخَتْ مفاصيلُه، وضعفت أعضاؤه، وزال عقله، ووقع على الصخرة مغمًى عليه من الخوف، فلمّا أفاقَ أبصرَ الثعبان قد وضعت رأسَها عند رأسه، فقام بأيِّ حال كان، وقال: إنَّ الشيخَ يُقرئك السلام. فتمرَّغتِ الثعبانُ، وجرى الدمع من عينيها، ثم رجعتْ إلى مكانها، والفقيرُ أيضًا رجع خائفًا متغيِّرًا لونه، رخوةً أعضاؤه، ولمّا شرعَ في الرجوع، سمع مساميرَ متاعِهِ، وتشوَّشَ منه، فقعدَ ونزع المساميرَ كلَّها، ثم جاء إلى الشيخ هيِّنًا لينًا، وقال الأصحاب: وصل إلى شخصٍ قد هذَّبَهُ في ساعةٍ مقدارَ ما كان يحصل له في عُمُرٍ. ثم هو أخبرَ الشيخَ والجماعةَ ما رأى، وتعجّبَ الأصحابُ عن هذا التدبير، ثم سألوا الشيخَ حال الثعبان، فقال رحمه الله: صاحبتني سبعَ سنين، وحصلتْ بيننا فتوحٌ كثيرة[1].

نقل أن الشيخ رحمه الله كان له تلميذٌ آخرُ غليظُ الطبع، سيِّىء الأدب، ولم يكن يتأدَّبُ بالتأديب والتعلّم، فأرسله الشيخُ نوبةً إلى جماعةٍ من الأتراك في شُغلٍ، فذهب إليهم، وكان يُحدّثهم بالعنف والقهر كما كان، فانغاظوا منه، وضربوه ضربًا قويًا حتّى لان، وصار مُتواضعًا مسكينًا، فرجع على هذه الحالة إلى الشيخ، فلمَّا رآه الشيخُ، تبسَّم، وقال: لم يكن له علاجٌ إلاّ هذا، وهذا يسمى عصا الطريقة.

نقل أنَّ القاضي الصاعد الذي كان قاضيًا بنيسابور، كان مُنكرًا للشيخ، ثم سمعَ أنَّ الشيخ قال: نحن ما نأكلُ إلاّ الحلال، وإن امتلأ العالمُ من الحرام مثلاً. فأراد القاضي أن يمتحنَهُ، فأمر أهلَه بأن يَشووا خروفَيْنِ، أحدَهما من الحلال الخالص، والآخر من الحرام المحض، وهو ذهب إلى الشيخ،

(١) أسرار التوحيد ١٢٢ وما بعدها.

ووصّاهم أن يُرسلوهما إليه، فجاء جماعةٌ من خدم القاضي بالخروفين المشويَيْنِ قاصدين لصحبة الشيخ والقاضي، إذِ استقبلهم جماعةٌ من الأتراك الأجلاف، وأخذوا منهم الخروفين بالقوة، وقطعوا وأكلوا، والحالُ أنَّ المأخوذَ لم يكن إلاّ الحرام منهما، وأوصلوا الآخر إلى مجلسِ الشيخ، ووضعوه بين يديه، ونظر القاضي، فإذا هو الحلالُ لأنَّه قد أَعلمَهُما ليعرفَ الحلالَ من الحرام، فنظر في الخدم نظرَ الغضبان، فقال الشيخ: يا قاضي، لا تشوّشْ بالك، فإنَّ الكلاب قد أَكلوا الجيفةَ، والحلالُ بقي لمن لا يأكل إلاّ الحلال[١].

ونقل أنَّ بعضَ الأيام غار اللحم في الخانقاه الشيخ حتى أنَّهم ما أكلوا اللحم مذ شهرٍ، إذ لم يكن لهم ثمنُ اللحم في تلك المدة، فاتَّفقَ أن جاءَ لزيارة الشيخ فتىً من أصحاب الثروة، فقال له الشيخ أن يُعطي دينارًا للخدّام أن يذهبَ إلى الموضع الفلاني، والسوقِ الفلاني، ويشتري لحم الضأن الذي ذبحه القصَّابُ الفلاني، ويفرّقه على الكلاب، فذهب الخادمُ، وامتثلَ أمرَ الشيخ، ورجع، قال الخادم: ولكن أنكرتْ في نفسي على الشيخ؛ لأنَّ الجماعةَ ما أكلوا اللحم في شهرٍ أو أكثر، واللحمُ اللطيف الضائن يُطعمه للكلاب! والقصّابُ لما رأى هذا الحالَ جاء إلى الشيخ يتضرّعُ ويبكي، ثم تاب على يده ورجع، قال الخادم: قلتُ للشيخ: بيِّنْ لي هذا السرَّ الغريب، إذ لم يبق إليَّ اصطبارٌ. قال الشيخ: هذا القصاب يربّي ويداري هذا الضأن من أربعةِ أشهر، ويسمّنُه، فاتفق أن جاءتِ البارحةَ [جائحةٌ أماتت الضأنَ] وكان سمينًا[٢]، فلم يوافقْهُ قلبُه في أن يرميه في المزابل، وأنا ما جوّزتُ أن يأكله المسلمون، فسمع الفتى هذا الكلام، وذهب إلى السوقِ، واشترى لي غنمًا آخر، وجاء بها إلى الشيخ، وشكر الله تعالى[٣].

---

(١) أسرار التوحيد ١٢٦.

(٢) كذا الأصل، وما بين معقوفين للتوضيح.

(٣) أسرار التوحيد ١٣٣، ١٣٤.

نقل أن الشيخَ أبا سعيد أرسلَ خادمَهُ إلى والي المدينة، وطلب منه شيئًا يكفي الجماعة يومًا، والوالي كان مُنكرَ الشيخ، ومع ذلك كان ظالمًا، ولمّا وصلَ إليه الخادم كان يضرب رجلاً ضربًا عنيفًا، وأخذَ منه كيسًا من الدراهم بالقوة والتعدّي، والخادمُ أدّى الرسالةَ إليه، وهو أطالَ لسانه في حقِّهِ، ثم رمى ذلك الكيسَ إليه، وقال: قل لشيخك: إنَّما أخذتُهُ عن هذا الرجل بالظُّلم والضرب بالعصا. فأخذه الخادمُ، وجاء به إلى الشيخ، فأمره الشيخ بأن يُنفقَهُ على الجماعة ـ يعني يُهيِّئ به طعامًا ـ فالخادم اشتغلَ بتحصيل ما أمرَ به الشيخُ، وطبخ طعامًا، وقدّمَهُ إلى الشيخ وأصحابِهِ، فالشيخُ شرعَ في الأكلِ بطيبةِ القلب، والأصحابُ وافقوه بالكرامة والإنكار، لأنَّ ثمنَ الطعام كان مأخوذًا عن مُسلمٍ بالظلم، وخفي عليهم سرُّ ذلك.

ثم إن الشيخَ رحمه الله في اليوم الثاني كان مشغولاً بالوعظ، إذ جاءَ الرجلُ الذي أُخذ الكيسُ منه بالغصب، وتضرَّعَ عند الشيخ، وبكى، وقال: إنّي تبتُ وندمتُ على ما صدرَ منّي من الخيانة، فلا جرم أنّي حملتُ ما جرى عليَّ من الضرب والإيذاء، فأرجو من ألطافك أن تجعلني في حلٍّ. فقال الشيخ: قلْ مع الجماعة الذين أنكروا عليَّ. فقال الرجل: إنّ أبي وصّاني أن أوصلَ إلى الشيخ الدّراهم التي في ذلك الكيس بعينه، وقال: هي وصيةٌ للشيخ وجماعته، والطمعُ غلبني، وتوانيت في ذلك، وخالفتُ وصيةَ الوالد، ثم إن الوالي قد اتّهمني بأمرٍ لم يصدرْ عنّي، وضربني وآذاني، وأخذ منّي ذلك الكيسَ، وكنتُ حاضرًا، إذ سلّم الدراهم بعينها إلى خادم الشيخ، ووصل الحقُّ لمستحقِّه، فقال للجماعة: ما قلتُ لكم لا يصلُ إلينا إلاّ شيءٌ يكون حلالاً!؟

ثم نقل أن الشيخ لم يطلع عن خلوته خمسة عشر يومًا، ثم طلعَ، فسألوه عن ذلك، [فقال]: عاتبني النبيُّ ﷺ، وقال: يا أبا سعيد، وإن كان نظرُكَ صحيحًا في الأمور، ولكن لا تعبرْ عن الظاهر؛ فإنَّ من يسمعَ أنَّك تقبلُ المالَ المأخوذ ظُلمًا، وتقبلُه من الوالي المشهورِ بالعدوان يتَّهمُكَ ويُفسد فيك عقائد المسلمين، وهذا يضُرُّهم في الواقع، ولا يضرُّك، ولكن لا تفتحْ عليك بابَ

التُّهمة، ولا تفتح بابًا أنا أغلقتُهُ بيدي. قال: كنتُ أعتذرُ إليه عليه السلام في هذه الأيام حتى قَبِلَ معذرتي، وارتفع الغبار[١].

نقل أن تاجرًا أرسلَ إلى الشيخ حملاً من العود، وألفَ دينار، فأشار الشيخ رحمه الله إلى الخادم بأن يشعلَ العود في التنُّورِ، وصرف الألفَ على دعوةٍ، وكان في المدينة مُحتسبًا لا يُبالي عن أحدٍ، فسمع، ودخل على الشيخ في الغضبِ، ورأى شموعًا مشعولةً بالنهار، فقال: ما هذا الإسراف؟ فقال الشيخ رحمه الله: صرفُ ألفِ دينار وأكثر في سبيل الله تعالى ليس بإسرافٍ، وصرفُ دِرهمٍ؛ بل أقل على النَّفسِ إسراف.

أقول: نقل أن شخصًا من المُعارضين للإمام المطَّلبي الشافعي رحمه الله قال له في أثناء المناظرة: لا خيرَ في السرف. فأجابه الشافعي رحمه الله وقال: لا إسرافَ في الخير. [والله أعلم].

ثم قال المحتسب: وما تقول في هذا الشموع، أليستْ من الإسراف؟ قال: لا، إذ ما يكون لله ليس بإسراف، وأمُرْ بإطفائه. فقام المحتسبُ بنفسه وشرعَ في إطفائها، فكلَّما كان يُطفىء شمعًا يشتعلُ الآخر، حتى عجزَ في أمره، ووقعتِ النارُ آخرَ الأمر في سباله[٢] ولحيته، واحترقت، والشموعُ بعد مشعولةٌ مضيئةٌ، فندم المحتسب وتاب، ورجع.

ثم جاء إليه مُحتسبٌ آخر، وأنكر عليه، فقال الشيخ: هذا الذي تبصرُ شيءٌ قليلٌ لا يليق به أن يذكرَه أحدٌ، لأن الله تعالى سمّى متاعَ الدُّنيا كلَّه قليلاً، حيثُ قال عزَّ من قائلٍ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وهذا أقلُّ من ذلك القليل[٣].

أقول: نقل أنَّ شخصًا من أصحابِ القلوب قال لمتكبِّرٍ: إنَّ الأرض بما فيها وعليها من الجبالِ والأشجار والنبات، والمعادن والحيوان وغيرها بالنسبة إلى سماءِ الدنيا كذرَّةٍ، والسماءُ الدُّنيا بالنسبة إلى السماءِ الثانية هكذا، والثانية إلى

---

(١) أسرار التوحيد ١٣٥، ١٣٦.

(٢) السَّبَلَة: طرف الشارب من الشعر.

(٣) انظر أسرار التوحيد ١٢١.

الثالثة كذلك، وهكذا إلى الكرسيِّ والعرش، ثم قال: فانظرْ إلى وجودك، وإنَّك ماذا تكون من هذه الذرة؟ وما نسبتُكَ إلى هذه الذرة، وهل لك مقدارٌ أو اعتبار في هذه الذرَّة؟ أفلا يُناسب على هذا أن لا يضحك عليك، وتعرف قدرَك، ولا تغفل عن قيمتك. [والله أعلم].

نقل عن خادم الشيخ أنه قال: اجتمعَ علينا دينٌ كثير، ولم يكن لنا شيءٌ نوفّي به الدَّين، فجاء شخصٌ إلى الشيخ بمئة دينار، قال الخادم: فدعاني الشيخُ، وناولني المئة، وأمرني بأن أمشي إلى المسجد الفلاني، وهناك شيخٌ هرمٌ أُسلّمُ ذلك إليه، فمشيت إلى المسجد، وصادفت فيه رجلاً هرمًا طنبوريًا، ومعه طُنبُور[1]، وهو نائمٌ، والطنبور تحت رأسه، فنبَّهْتُهُ، وأعطيتُهُ الدنانير، فأخذها وبكى، وجاء معي إلى الشيخ، وقال: أهلي أخرجوني من البيت، ولا يُطعموني، والناسُ أَعرضوا عنّي، وتلاميذي تركوني، وكلُّ ذلك لأجل التُّهم، فدخلتُ ذلك المسجد، وقلت: إلهي، أهلي وعيالي أَعرضوا عنّي، وتلاميذي أَعرضوا عنّي، والناسُ لا يلتفتون إليَّ، ولا يَدعونني إليهم في مجالسهم، وأنا زرتك الليلة في بيتك، ولك أغنّي، لعلك تُطعمني، وهكذا إلى السحر كنتُ أضربُ الطنبور وأغنّي وأبكي، حتى أخذني النوم، فانتبهتُ، ووصل إليَّ هذه الدراهم. وتاب على يد الشيخ، وطاب حالُه، ثم قال الشيخ رحمه الله: يا فلان، إنَّ اللهَ تعالى لم يتركْكَ ضائعًا، وأنت على ما كنت، والآن أيضًا لا يتركك ضائعًا، فتوجَّهْ إليه، واعرضْ عليه حوائجَكَ، واصرفْ عليك الآن هذه الدراهم، ثم هو يقال لا ينساك، ثم قال للخادم: لم يُغبنْ أَحدٌ مع الله على أيِّ حالٍ يكون[2].

نقل أنَّ فقيرًا كان له كرمٌ، فدعا الشيخَ إليه، والشيخُ بعدَ الامتناعِ أجابَهُ، وتبعه مع أصحابه، وأكلوا ما كان فيه من العنب، إذ كان قليلاً، وصوفيٌّ من

---

(١) الطُّنبُور: من آلات الطرب ذوات الأوتار. فارسي معرب دبنه برّه. معجم متن اللغة

(٢) أسرار التوحيد ١٣٠، ١٣١.

الأصحاب قطفَ عناقيدَ ولفَّها في خُريقةٍ له، إرادةَ أن يذهبَ بها إلى بيته، ولبسها هناك، ثم لمّا اطّلعَ الشيخُ من البستان اعتذر إلى الفقير، وقال: أعطاكَ الخيرَ والبركة. قال الفقير: يا شيخ، كيف يُعطي البركةَ ولم يَبقَ من العنب شيءٌ؟! قال الشيخ: نعم، بقي شيءٌ يكفيك. فرجع الفقيرُ إلى الكرم، ودار فيه، فلم يجدْ شيئًا، فحزن ولم يرجعْ إلى الكرم إلاّ في الربيع، لأنّه ذهبَ إليه للعمارة والإصلاح، فصادف الحديقةَ وفيها العناقيدُ ما تغيَّرتْ قطُّ، كأنّها قُطفت ذلك اليوم، وهي طريَّةٌ لطيفةٌ عليها الغبارُ الذي يكون على العنب، فأخذَها وأهداها السلطانَ، فأعجبته، وملأ الطبقَ من الدراهم والدنانير، وردَّها على الفقير، ففرح وعلمَ أنّه ما كان إلاّ ببركة دعاء الشيخ وكراماته، فأخذها، وجاء إلى الشيخ بعشرةِ دنانير، واعتذر إليه.

نقل أنه كان في زمان الشيخ أبي سعيد رجلٌ مرتاضٌ، كثير الرياضة والخلوة، وكان منكرًا للشيخ وحالاته، وما كان يُؤكلُ في مجلسه من أنواع الأطعمة اللذيذة الشهية، فجاء إلى الشيخ، وقال: أُريد أن أختلي معك أربعينَ يومًا وليلةً ـ كما هو المتعارف بينهم ـ فقال الشيخ رحمه الله: يكونْ مباركًا. وذلك الرجلُ كان يأكلْ قليلاً على عادة أصحابِ الأربعين، والشيخُ ما أكلَ في تلك الأيام، ولا ذاقَ قطُّ، والخادمُ كان يقدّمُ الأطعمةَ في اليوم والليلة إلى الفقراء، والرجلُ ينظر إليها، والشيخُ فارغُ [البال] منها، وكان رحمه الله يسمع من غير ضعفٍ في أعضائه، والرجلُ صار ضعيفًا جدًا، والشيخُ كان يسمنُ، فندمَ الرجلُ، ولا ينفعه الندمُ، ولمّا تمَّتْ مدةُ أربعين، قال الشيخ رحمه الله: هذه الأربعون كانتْ على وفق اختيارك ورضائك، ولكن أرجو منك أن تقعدَ معي أربعين يومًا أُخرى على ما أَختارُه. قال الرجل: كيف هذا؟ قال الشيخ رحمه الله: تأكلْ كلَّ يوم طعامًا كثيرًا، ولا تدخل المبرزَ قطُّ إلى تمام المدة. فقبل الرجلُ، والشيخ كان يأكلُ أنواعًا من الأطعمة، وما كانَ يحتاجُ إلى الدخول في المبرز، والرجلُ في اليوم الأول احتاجَ، حتى انفتل على نفسه، وما أطاقَ، فأذنَ له الشيخُ ليدخلَ المبرز، وهو على تلك الحالة استمرَّ إلى تمام

أربعين، فلمّا تمّتِ المدةُ علمَ الرجلُ أنَّ الأكلَ وتركَهُ سواءٌ عند الشيخ، فتابَ، وصار مُريدًا له[١].

نقل أن ناسًا كثيرًا من اليهود والنصارى والمجوس أسلموا على يد الشيخ في نيسابور وأئمة نيسابور كلٌّ منهم كانَ يحبُّ أن يسلمَ كافرٌ على يده، وما كان يتَّفقُ، ولا سيما أبا محمد الجويني فإنّه كان حَريصًا في ذلك، وكان له وكيلٌ يهوديٌّ، وكان يدعوه إلى الإسلام كثيرًا، وما كان يقبل إلى أن قال أبو محمد: إنِ اتّفق إسلامُك فأنا أتكفَّلُ بوجه معاشك مدَّةَ ما بقي من عمرك. ولم يقبل، فقال له يومًا آخر: إن آمنتَ أعطيتك الثُّلثَ من مالي. فما نفعه، وقال: معاذ الله أبيع ديني بعرضٍ. ثم قال: أُعطيكَ نصفَ مالي. فلم يُجبْهُ اليهوديُّ، فيئسَ منه أبو محمد إلى أن اتّفقَ له أن حضرَ يومًا مجلسَ الوعظ للشيخ أبي سعيد رحمه الله، وجاء إليه ذلك اليهودي في شُغلٍ، ودخل المسجدَ، وأراد أن يستمعَ على كلام الشيخ ماذا يقول، ووقفَ في قفا ساريةٍ، وفي ظنِّه أن الشيخ لا يعرفُهُ، لأنَّه ما رآه، وكان هناك خلقٌ كثير، فاختفى بينهم، فلمّا شرعَ الشيخُ في الكلام توجَّه إلى تلك السارية، وقال: يا يهوديُّ المختفي خلفَ السارية، إلى متى تبقى في الدِّين الباطل؟ فاخرجْ من قفا. فكلّما أراد واحتال اليهوديُّ في إخفائه، فلم يقدر، فقام وجاء إلى الشيخ وقال بالعجمي:

مَنْ گبَرْ بودمْ هَنُوزْ مسلمان گشْتَم بَدْ عَهْد بودَم كَفُور مسلمًا گشْتَم

معناه: أنه يقول:

كنتُ إلى الآن كافرًا فأسلمتُ، وكنت على عهدٍ رديٍّ وحالةٍ قبيحةٍ، فصفتَ حالي.

ولمّا تحقَّقَ إسلامُه، أمره الشيخُ أن يذهبَ إلى الإمام أبي محمد الجُويني رحمه الله، ويتعلَّمَ منه أركانَ الإسلام، وقال: قل له: أما علمتَ أنَّ الأمورَ موقوفةٌ على أوقاتها، فإذا جاء الوقتُ فلم يبقَ الاحتياجُ إلى ثُلثِ المال، ولا إلى

(١) أسرار التوحيد ١٤٩، ١٥٠.

نصفه. وسمع الإمامُ أبو محمد هذا الكلام، وطابَ وقتُهُ، وقام إلى الشيخ، واعتقدَهُ، وزال عن قلبه إلاّ محبة الشيخ[١].

نقل أن مُحتسبًا جاء إلى الشيخ، وقال: لِمَ تُسرفُ في الطعام والشراب؟ وحدّثَ غليظًا، فدعاه الشيخ إليه، وقال له: انحنِ فانحنى، وبقي مُنحنيًا سالمًا إلى أن ماتَ.

نقل أن ابنَ الشيخ كان في السماع بمحضر الشيخ، وطاب وقتُهُ فيه، وقال: لبيك. وأحرمَ من ساعته بالحجِّ، وقصد السفرَ، ووافقه الشيخُ أيضًا في ذلك السفر، وخرجَ من المدينة، ولكن كان يقولُ في الطريق: إنَّ ذلك العزيزَ كيف يحملُ وحده تلك المصيبةَ؟! وأصحابُهُ لم يكونوا مُطّلعين على مقصوده إلى أن وصلوا إلى خرقان، فرح الشيخ أبو الحسن الخَرَقاني رحمه الله بمجيئهم، وكان له ابن سمّاه أحمد، وكان له نظرٌ إليه، واتّفق أن كانت ليلة قدوم الشيخ أبي سعيد رحمه الله ليلةَ الزفاف له، فإذا بعض الأعداء للشيخِ أبي الحسن رحمه الله قصدَ ابنه في تلك الليلة، وقتلَ ابنه في تلك الليلة، وقتله وقطعَ رأسَه، ووضعَهُ على باب صومعة أبيه أبي الحسن، فغسَّلَه أبوه وكفّنه، وكان منتظرًا لقدوم الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فلحقوا، وصلّوا عليه، وعلمَ أصحابُ الشيخ أبي سعيد رحمه الله أنَّ مُرادَه من كلامه الذي يقوله في الطريق كان الشيخ أبا الحسن، ويقول: كان ينبغي لهذه الجراحة مثلُ هذا المرهم، وينبغي لقدوم مثل هذا الشيخ الأجل فيصبح مثل ابني[٢].

نقل أنَّ فقيرًا من العراق جاء إلى الشيخ أبي سعيد رحمه الله، فصادفَهُ في الطريق، فرافقه، وسار في ركابه، ثم سأل عن الشيخ: [ما] حقُّ الشيخ على المُريد، و[ما] حقُّ المُريد على الشيخ؟، فما أجابه الشيخُ عن سؤاله، وقال: بل الأولى لك أن تستريح الساعة إلى غَزْنين[٣]، وتحضر إلى فلان، ويُسمّي

---

(١) أسرار التوحيد ١٥٥ وما بعدها.

(٢) أسرار التوحيد ١٦٠ وما بعدها وانظر الخبر صفحة ٥٨٢، و٦٠٧.

(٣) غَزْنِيْن: وهو الصحيح في اسم غزنة. وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان (في=

شخصًا، وتقول له: أرسلْ لأجل دينٍ على الفقراء بنا مئة دينار، ولأجل الخانقاه رطلَيْنِ من العود. فسار الفقير في الحال إلى جانب غَزْنين، ووصلَ إليها بعد المشقة، وأوصل رسالةَ الشيخ إلى ذلك الرجل، وأخذ الدنانيرَ والعود، ورجع، فوصل إلى هراة، فرأى فيها صبيًّا وأحبَّه، وذكر سرَّه لرجلٍ، رحل خبرُهُ إلى الصبيِّ، ورضي الصبيُّ بأن يأخذَ منه دينارين، ويبيت عنده القصة[١]، جاءَ إليه الصبيُّ كما وعد، وأكلوا شيئًا، واختلى به الفقيرُ، وأرادَ أن يعملَ معه الفعلَ القبيح، وقصده، فرأى الشيخَ أنه ظهرَ من جانب البيت، وصاح عليه وقال: لا تعملْ هذه الخصلة، ولا تفعلْ هذه الفعلة. فشهق الفقير من هيبتِهِ، وزال عقلُه، وسقطَ على الأرض مغمًى عليه، فحين رجعَ إليه عقلُه، توجَّه إلى الشيخ، وسار حتى وصلَ إليه مَرعوبًا مذعورًا، فلمّا وقعَ عليه نظرُ الشيخ، قال: يا فلان، اعلمْ أن حقَّ الشيخ على التلميذ أن يقبلَ إشارةَ شيخه، ويمتثلَ أمرَهُ، ويسيرَ بإشارته إلى غزنين، وحقُّ التلميذ على الشيخ أن ينبِّهَهُ إذا وقعَ له خطأٌ، ويمنعَهُ عن ذلك. فتمرَّغَ الفقيرُ بين يدي الشيخ، وتاب إلى الله تعالى، ورجعَ عمّا وقع[٢].

ونقل أنَّ سالكًا قصدَ أن يُتلمذَ شيخًا يُرسلُه إلى الحقِّ، فتردَّدَ بين الأستاذ أبي القاسم، وبين الشيخ أبي سعيد رحمهما الله، وما كان يتبيَّنُ له الصوابُ، حتى رأى ليلاً في المنام أنَّ الشيخَ أبا سعيد كان على جبلٍ، فخطا منه خطوةً، ووضع قدمَهُ على جبلٍ آخرَ بعيدٍ من الأول، وبينهما فراسخُ، ثم منه إلى جبلٍ

= أفغانستان)، وهي الحدُّ بين خراسان والهند، فيها خيرات واسعة، إلا أن البرد فيها شديد جدًا، وما زالت آهلة بأهل الدين، ولزوم طريق أهل الشريعة والسلف الصالح، وهي منزل بني محمود بن سُبُكتكين. معجم البلدان. وما زالت مأوى المجاهدين حفظهم الله ورعاهم.

(١) كذا الأصل، وفي أسرار التوحيد ١٨٩: ولمّا وصل إلى مدينة هراة، ذهب مع درويشٍ هرويٍّ إلى الحمام، وكان في الحمام غلامٌ جميل، فتطلّع إليه ذلك الدرويش، وأخبر الهروي بالأمر، فقال الهروي: يلزمنا شيءٌ لنحضره إلى المنزل ونختلي به، فأعطاه الدرويش دينارين، ورتب الهروي الأمر، وأحضر الغلام.

(٢) أسرار التوحيد ١٨٨ وما بعدها.

آخرَ، وأرادَ الرجلُ أن يتبعَهُ، وما أطاقَ، وهو في ذلك إذ غابَ الشيخُ عن نظره، فنظرَ الرجلُ إلى الجانب الذي هو فيه، رأى الأستاذَ يمشي في شارع، وخلفَه خلقٌ كثير، فانتبه، وعلمَ أنّه لا يقدرُ على سلوك طريقة الشيخ، وعلم أنّه يقدرُ على متابعة الأستاذ لأنه كان هيِّنًا، فذهب لمّا أصبحَ إلى الأستاذ، واقتدى به.

ونقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان نوبةٌ في غلبات الشوق والوجد، فأراد مُغنِّيًا، ولم يوجد، فألحَّ على الأصحاب، وأعطى رداءه على شخصٍ من أصحابه، وأمرَهُ أن يدورَ على مغنٍّ أينما يكون، ومن يكون، ويجعل الرداء على رقبته، ويجيء به إليه، فدار الرجل، وما وجدَ إلاّ مُغنّيًا سكران، وشدَّ الرداء على رقبته، وجاءَ به إلى الشيخ، فأنشدَ بيتًا طابَ له وقتُهُ، وقال ودار في المجلسِ، وانحلَّ به إشكالُهُ، فخلعَ مرقعتَهُ وألبسه المغنّي، وأمره بالرجوع إلى بيته، فذهبَ ونام، ولمّا أصبحَ انتبَهَ، ورأى عليه مرقعَ الشيخ رحمه الله، وعلى كتفه رداءه، فاستحى منهما، وقال: لا يُمكنني مع هذين أن أسلكَ طريقَ الأجانب. فذهبَ إلى الشيخ، وتابَ على يده، وصارَ مُريدًا له، وحَسُنَ حالُه ببركته، روّح الله روحه[1].

نقل أن صوفيًا من أصحاب الشيخ رحمه الله ضربَ كلبًا بالعصا، فكسرَ رجلَه، فتألّمَ الكلبُ، وجاء على تلك الحالةِ إلى الشيخ، وتمرَّغَ على التراب كأنّه يشتكي من ذلك الصوفيّ، فأمر الشيخُ بإحضاره، ووبَّخَهُ [على] ذلك وذمَّه، فقال الصوفيُّ معتذرًا: إنَّ الكلبَ كان مُضطجعًا على الطريق، وضيَّقَهُ على المارّين، فكلَّما أشرتُ إليه بأن يقومَ من الطريق، فما قامَ، فضربته بعصًا لا على قصدِ الكسر، فانكسرتْ رجلُه. والكلبُ ما كان يسكت، فقال الشيخ: هل تعلمون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: يقول: إنّي رأيتُ عليه ثيابَ أهل الصلاح وزِيَّهم، وقلتُ: إنه لا يُؤذيني، ويُعاملني معاملةَ الصُّلحاء، فاغتررتُ به، وما قمتُ من الطريق اعتمادًا عليه، ثم ما علمتُ أنَّه كان سَبُعًا من الجنِّ في

(١) أسرار التوحيد ٢٦٢.

صورة الإنسان، وهيئة الصلحاء، ولا بدَّ له من تأديبٍ، وزجرةُ تأديبه أن تُخلعَ منه خرقةُ الصُّوفية؛ لئلا يغترَّ به غيري، ويعلمَ الخلقُ أنَّه من الأشرار لا من الأخيار، فندم الصوفيُّ على ما فعلَ، وتابَ واستغفر، وندمَ عمَّا فعل، والشيخُ رحمه الله طيّبَ خاطرَ الكلب، وطابَ وقتُ الكلبِ والحاضرين جميعًا.

نقل أن صديقًا للشيخ رحمه الله قد وصَّاه بأنَّه إذا جاءَ إليه شخصٌ من الصُّلحاء يُرسلُه إليه ليخدمَهُ وينالَ بذلك ثوابًا، فاتَّفقَ أن تلميذين من تلاميذِ الشيخ دخلا مسجدًا، فأبصرا فيه رجلاً كلّما كان يتحرَّكُ يستضيءُ المسجدُ من حركته، فتعجَّبا من ذلك، وقالا: ظننَّا أنَّه ليس على وجه الأرض أحدٌ مثلَ أبي سعيد. فرجعا إلى الخانقاه، وأخبرا الشيخَ بما أبصرا من حال الرجل، فإذا الرجلُ دخلَ عليهم، فقال الشيخ: هذا طلبةُ ذلك الصديق. وأرسلَهُ إليه، فسُرَّ به ذلك الشخص، وقدّم إليه في الحال طعامًا، فرفع الرجل لقمةً، ووقف زمانًا، وكان يُحرّكُ شفتيه بكلام خفيٍّ، ثم وضعها في فيه، ثم رفعَ لقمةً أُخرى، وتوقف كثيرًا، وقال أيضًا كلامًا ما سمعَهُ الحاضرون، فلم يَصبرْ صاحبُ الطعام، وألحَّ عليه ليأكله، وقال: إنّه حلالٌ لا شُبهةَ فيه. فما أكلَ تلك اللقمة؛ بل وضعها على الأرض، فتحيَّرَ صاحبُ البيت، وجاء إلى الشيخ، فسألَ منه هذا الحال، ثم لمّا اتَّفقَ الحضورُ، سأله عمّا جرى، فقال: رفعتُ اللُّقمةُ أولاً، وقلت: إلهي، أَحسنْ إلى هذا الرجل، وبعزَّتِكَ لا آكل هذه اللقمةَ إلاّ بعدَ أن توسّعَ عليه الرزقَ في الدنيا، حتى كشف الله تعالى أنه استجابَ دُعائي، هذا في حقِّه، ثم أخذتُ اللقمةَ الثانية وقلت: إلهي، ما آكل هذه اللقمة إلاّ بعد أن أعلمَ أنَّك قد خفَّفْتَ عليه الحساب، وثقّلتْ له ميزانَ الحسنات، وعفوتَ عنه، ونجّيته من عذابِ النار. فجاء إليَّ خطابٌ من ربِّ العالمين على طريقة الإلهام: أنّه استجابَ دعائي هذا أيضًا في حقِّه، ثم رفعتُ الثالثة، وقلت: إلهي أطلبُ منك أن ترزقَهُ المعرفةَ والولايةَ، فلم يصبرْ صاحبُ الطعام، وشوّشني بالإلحاح والمبالغة، حتى تشوَّشْتُ وتركت، ولعلّه لم يكن أهلاً لهذه المرتبة السنية والمنقبة العلية.

نقل عن خادم الشيخ أنه قال: كان بنيسابور رجلٌ مُنعمٌ ذو ثروةٍ، فدعاني وقال: آنا من أصدقاء الشيخ، ومن المحبّين له بالإخلاص، فأرجو منك أنه إذا حصلَ لكم حاجةٌ أن تطلبوه منّي، وأنا أخدمُ بالقلب والروح، فأخبر الخادمُ الشيخ، وهو لم يُنكرْ عليه، حتّى أنَّ يومًا من الأيام ذهب الخادم إلى ذلك الصديق سبعَ مرّاتٍ، وهو كان يقضي الحوائجَ بطيبِ القلب وحُسْنِ الخلق، ثم وقتَ الغروب أمرَهُ الشيخُ بأن يطلب منه العودَ وماءَ الورد، فذهب إليه الخادمُ، وقال: أستحيي منك، وذكر له الحال، فقال الرجل: أنا مُنقادٌ لأمر الشيخ، ومملوكٌ له، وَأُعطي ما سأل، وقال: إذا تستحيي أن تجيءَ إليَّ لأجلِ هذه المحقرات، فأنا من الغدِ أَصرفُ ألفَ دينارٍ إن شاء الله تعالى، وأبني خانًا وحمامًا، وأُسلّمهما إليك لتأخذَ الحاصلَ، وتصرف في حوائج الخانقاه، وإذا عُرضتْ حاجةٌ عظيمة، فاعرضْها عليَّ. قال الخادم: ففرحتُ بهذا الوعد، وقلتُ: تخلصُ بتوفيقِ الله تعالى من المذلّةِ والفاقة، وجئتُ إلى الشيخ، فنظرَ إليَّ نظرَ الغضبان، إذ كشفَ اللهُ له ما جرى، وقال: اخرجْ وطهّرْ باطنك من لوثِ محبّةِ الدنيا حتى أدعك بين الصوفية، وإلاّ فلا. قال الخادم: فخرجتُ، ثم جئتُ إلى الباب حافيًا مكشوفَ الرأس باكيًا مُستغفرًا، ثم دخلتُ، ولم يحدّثْني الشيخُ تلك الليلة، ثم اليوم الثاني صعدَ الشيخُ المنبر، وأخذَ في الوعظِ، ولم ينظرْ إلى ذلك الصديق قطُّ، والحالُ أنّه كان ينظرُ إليه في أثناء الوعظ أحيانًا، فلمّا فرغَ جاء إليه الصديق، وتمرَّغَ بين يديه، وقال: وما ذنبي الذي أوحشَ منّي الشيخ؟ قال الشيخ: لأنَّكَ أردتَ أن تنزلني إلى أسفلِ السافلين لأجلِ ألف دينار. قال الصديق: وبماذا يطيبُ خاطرُك الشريف؟ قال الشيخ: بأن تسلّمَ ذلك الألفَ إلى الخادم؛ ليطبخَ الهريسةَ، وسائرَ الأطعمة، ويُطعمَ أهل المدينة. فقبل الصديق بالرأسِ والعين، وسلّم ألفَ دينارٍ إلى الخادم، فطابَ خاطرُ الشيخ، وأنفقَ الخادمُ [الألف] كلَّه في الطعام، وأضافَ أهلَ المدينة، قال الخادم: قال الشيخ: في الليلةِ كم مرّة لا يستريحُ فؤادي، لعلَّ شيئًا بقي من الطعام. فدرتُ في زوايا الخانقاه، وتفحّصْتُ، فإذا رغيفٌ كان

باقيًا في طيِّ السُّفرةِ، فأطعمتُهُ كلبًا، ثم طابَ خاطرُ الشيخ، ونامَ بعضَ الليل، نوّرَ الله مرقده[١].

نقل أنَّه لما كثرتْ تلاميذُهُ، واعتقدَهُ الناسُ، اتّفقَ أهلُ نيسابور: من القاضي، وكان خطيبًا أيضًا، ومن مقدّمِ المدينة، وسائرِ الرؤساء وأصحابِ الجاه[٢]، وكتبوا رسالةً إلى سلطان محمود، وأدرجوا فيها أنّه قد جاءَ إلى نيسابور رجلٌ يصعدُ المنبر، ويعظُ الناس، ويُنشدُ الأبيات على المنبر، وجماعةٌ من الشبان اجتمعوا عليه، فيستمعون ويرقصون، ويأكلون لحمَ الطير وسائرَ الأطعمة، ويُشعلون الشموعَ والعود، ويدّعون أنّهم زهادٌ، وافتتنتِ الناسُ والعوام فيهم، وأرسلوا الرسالة إلى السُّلطان، وهو ردَّ عليهم الجوابَ، وأمرهم بالتفحّص والبحث عن حاله، والحكم فيه على مقتضى الشرع، ووصلَ إلى المُنكرين توقيعُ السلطان يوم الخميس، فاتَّفقوا على أنّهم غدًا بعد صلاة الجمعة يَجتمعون ويحكمون فيهم ما يقتضي الشرع، وانتشرَ الخبرُ في المدينة، فتحزَّنتِ الصوفيةُ، وما كانوا يجترئون ليخبروا الشيخ بصورةِ الحال، وهو رحمه الله كان خبيرًا بما جرى، فسأل عن الخادم بعد العصر، وقال: كم الصُّوفية الملازمون لصحبتنا؟ قال الخادم: هم مئةٌ وعشرون، والمسافرون هم ثمانون. فأمرَه أن يُهيِّئ لهم طعامًا للغداء بحيث يكونُ لكلِّ واحدٍ رأسٌ مطبوخٌ ملطّخٌ بالمسك، ولكلِّ واحدٍ رطلٌ من الحلواء بالسُّكّر، وماءُ الورد برطلِ الخليفة، ويكون عودٌ في المجامرِ، وماء الورد في القماقم، ثم يقدّم إليهم في الجامع حتى يراه المنكرون بأبصارهم، ويعلمون أنَّ اللهَ تعالى كيف أعزَّ عباده، وأطعمهم وسقاهم مع فقرِهم وفاقتهم.

قال الخادمُ: دخلتُ المطبخَ، فوجدت فيه رطلاً من الخبز، وما كنتُ أعرفُ

---

(١) أسرار التوحيد ١٢٧، وانظر صفحة ١٢٠ منه أيضًا.

(٢) في أسرار التوحيد ٨٩: وكان زعيم الكرامية في نيسابور الأستاذ أبو إسحاق الكرّامي، ورئيس أصحاب الرأي والرافضة القاضي صاعد، وكان لهما أتباع كثيرون، وكانا ينكران الشيخ إنكارًا شديدًا، وقد اجتمع هؤلاء وكتبوا عريضةً شهد عليها أصحاب الرأي.

أحدا أتهجَّم عليه لطلب درهم، والحالُ أنَّ الناسَ قد تشوَّشوا فينا بسبب هذا الخبر، فخرجتُ من الخانقاه، وقد كادتِ الشمسُ أن تغربَ، وأنا متحيِّرٌ في شأني، فإذا التقاني شخصٌ، وسألني عن حالي؛ لأنه عرف في وجهي أنّي متردِّدٌ مُتحيِّرٌ مغمومٌ، فذكرت له الحال، فقال عبِّرْ يدك في كمّي، وخذْ ما تريد. قال الخادم: فأخذتُ حفنةً من الدراهم، وهيَّأتُ جميعَ ما أمرني الشيخُ، فما انتقصَ شيءٌ من الدراهم، ولا فضلَ، وقدّمتُ إلى الجماعة الصوفية كذا وكذا من الغذاء كما أمرَ الشيخُ، وقعدوا حولَ السفرةِ في الجامع، وأكلوا، واشتهر في المدينةِ أنَّ الشيخَ صنعَ اليوم كذا، وأطعمَ الصوفية كذا وكذا. قال المُنكرون: لا تعجيلَ لنا فيهم، خلّوهم يملؤوا أجوافَهم، فإنّ اليومَ آخرُ عهدهم بالدنيا. ثم بعد الفراغِ من الأكل، أمرَ الشيخُ الخادمَ ليبسطَ سجادةَ الشيخ، والصوفيةُ قريبًا من المحراب، وصلّى الشيخُ في قفا الإمام الخطيب، ولمّا سلّم الخطيب، سلَّمَ الشيخُ، وصلّى السُّنة، وقامَ ليخرجَ من المسجد، فنظرَ إليه الخطيب، وأرادَ أن يقول شيئًا، فنظرَ إليه الشيخُ شزرًا، فأطرقَ الخطيبُ، وخرجَ الشيخُ وجماعتُهُ من الجامع، ودخلوا الخانقاه، ثم بعد العصرِ أشارَ الشيخُ إلى الخادم: أن يَمشي إلى السوق، ويشتري خمسةً من الكعك والزبيب المنقّى، ويذهبَ إلى مقدَّم المدينة، ويقولَ له: إنَّ الشيخَ يقول: أفطرِ الليلةَ على هذا الكعك والزبيب. فذهبَ الخادم، وأوصلَ الهديةَ، وأدّى الرسالة، فزال اللون من وجهه، وعضّ أصبعه، وأرسل شخصًا إلى الخطيب، وقال: أمّا أنا فرجعتُ عمّا كان بيننا من إيذاءِ الشيخ وجماعته، لأنّي نويتُ الصومَ من الليل، ولم يطّلعْ على صومي سوى الله تعالى، ثم كنت عابرًا في السوق، ورأيتُ الكعكَ والزبيب المُنَقّى، وكان في خاطري أن أشتري منهما، وأُفطرَ عليهما، والحالُ أنّي نسيتُ ذلك، وحين دخلتُ البيتَ، أرسلَهُ الشيخُ إليَّ، وأمرني بالإفطار عليهما، فمن تكونُ كرامتُهُ وفراسته مثلَ هذا، فنحن لا نقدرُ عليه ألبتَّةَ. وذهب رسولُ المقدَّم إلى الخطيب، وحدَّثه الحديثَ، فقال الخطيب: كنتُ أُرسلُ الساعةَ إلى المقدَّمِ بأنّي رجعتُ عن هذا التدبير؛ لأنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله

نظرَ إليَّ شزرًا بعد الصلاة، وكادتْ مرارتي أن تنشقَّ من الخوف والرعب، ورأيتني عنده كعصفورٍ في مخلب بازيٍّ، وما بقي لي مُخاصمةٌ ولا مُنازعةٌ معه. ثم أرسل المقدَّمُ إلى الشيخِ: إنَّ القاضي الصاعد يتبعُهُ ثلاثون ألفًا من أهل نيسابور، ولي من التبع عشرون ألفًا، وللسلطان محمود رحمه الله عسكرٌ عظيم، وسبع مئة فيل، وأنت غلبتَ الجميعَ وكسرتَهم بخمسة أرطال من الكعك والزبيب، وبنظرٍ إلى القاضي ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] [الكافرون: ٦].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله كان عابرًا في بعض السكك، فأبصر جماعةً من الكنَّاسين ينقلون النجاسةَ من مبرزٍ، ويكنسونه، وظهرت هناك رائحةٌ كريهةٌ، فوقف وقال لأصحابه: هل تدرون ما تقولُ هذه النجاسةُ بلسان الحال؟ قالوا: لا. قال تقول: ما أنا إلاّ الأطعمةُ والفواكه التي كان لي طعمٌ حسنٌ، ورائحةٌ طيِّبةٌ، وكان للناسِ ميلٌ عظيمٌ إليَّ حتى أنَّهم يتخاصمون ويتقاتلون لأجلي، ثم تحوّل الحالُ إلى إن بتُّ معكم ليلةً، وصاحبتُكم فيها، فاكتسبتُ من الخساسة والحقارةِ والطعمِ والرائحة ما لا يخفى، ثم خلصتُ منكم، وسأصيرُ ترابًا، ولكن كيف يكون حالُكم وأنتم تصاحبون أنفسَكم ولا تفارقونها سبعين سنةً أو أقلَّ أو أكثر؟ فأنتم آخرَ الأمرِ لا تُخرجون منكم إلاّ شيئًا عجيبًا[2].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رأى جماعة من الظَّلمةِ قد أقعدوا رجلاً في الشتاء في الماء البارد، ويضربونه قويًا، والرجل يقول: يا ربّ يا ربّ. فذهب الشيخُ إليهم، ليتشفَّع فيه، ثم رجع، ولم يتكلّمْ شيئًا، فسأله بعضُ الأصحاب، وقال: لِمَ رجعتَ قبل أن تشفع؟ قال: لأنَّي نوديتُ في سرِّي[3]: يا أبا سعيد، لا تشفعْ في هذا الرجل؛ فإنَّه ما ذكرَ الله تعالى في عُمره قطُّ إلاّ في هذا اليوم، وهذا أيضًا بالعصا، فدعهم يضربوه، لأنَّ هذا جزاءٌ لمن لم يذكرِ الله تعالى في الراحة، ويذكره في الشدة.

---

(١) أسرار التوحيد ٨٩ـ ٩٥.

(٢) أسرار التوحد ٣٠٠.

(٣) الأصل: لأني نويت في سرّي.

نقل أنه سمعَ أنَّ فلانًا من الفقراء انزوى في زاويةٍ مدَّةً مديدةً، وصار جسمه من الرياضة كالخلال، فأرسلَ إليه: أنَّ المناسبَ لحالك أن تلفَّ جميعَ ما عملتَ في لقمةٍ، وتُطعمها فقيرًا وتخلص.

أقول: يُشير إلى أنَّه كان مُعجبًا في نفسه بسبب رياضته ومجاهدته، فأمره بتركِ العجب، فإنه من أشدِّ المُهلكات للسالك، لأنه حجابٌ عظيمٌ بينه وبين الحقِّ، وهو لا يصلُ إلى المقصود الأعظم إلاّ برفع الحُجُبِ كلِّها. [والله أعلم].

نقل أن الشيخ رحمه الله كان في صحبةٍ بالنهار، وكان هناك جماعةٌ من أهل الغناء، ولم يحصل لأحدٍ من الصوفية ذوقٌ، ولا هاجَ فيهم شوقٌ، مع أنَّ المُغنِّين اجتهدوا كثيرًا، ثم إنَّ الشيخ رحمه الله دعا إليه الخادمَ، وأمره أن يجعلَ عصًا على صورة امرأةٍ بإزارٍ، ويضعها على طرف السطح، بحيثُ يَراها الجماعةُ، ولا يعلمون حقيقتَها، ففعلَ الخادمُ، وبعد ذلك شرعَ المُغنّون في الغناء، والصوفيةُ في السماع، وحصلَ لهم شوقٌ وذوقٌ، ووجدوا حالاً فوق الوصف، حتى صاحوا ومزَّقوا الخرقَ، فلمّا قضوا من السماع أوطارَهم، وعرفَ الشيخُ أحوالَهم وأفكارهم، أمرَ الخادمَ بأن يكشفَ سرَّ تلك[1] الهيئة، ليعرفَ الحاضرون من أنَّ هيجانَ أشواقِهم لأيِّ شيءٍ كان.

أقول: يُشير أولاً إلى أنَّهم تَواجدوا ـ أي أظهروا الوجد ـ وتواجدُهم أيضًا ما كان إلاّ لتوهُّمهم أن تلك الصورة امرأةٌ، وتخيَّلوا صورةً مُستملحةً جليلةً، فلها صاحوا واضطربوا، وأنهم لا حظَّ لهم من مقامِ الوجد الحقيقي، والشوق التحقيقي، ومقصودُهُ رحمه الله تَنبيهُهم على خطئهم، وردِّهم عنه إلى الصواب، وفي هذا إشارةٌ أُخرى إلى أنَّ المُحبّين للدنيا، المُشتغلين بعمارتها، الذين يصرفون أعمارَهم النفيسةَ في طلبها وحبِّها سيُكشفُ لهم عن محبوبهم، ليطّلعوا على قباحته، فيعلموا أنَّهم خسروا فيه خسرانًا مهينًا، وضلُّوا ضلالاً بعيدًا،

---

(١) الأصل: بأن يكشف للشيخ سر تلك.

أعاذنا الله بتوفيقه ورحمته ولطفه عن هذه الفتن. [والله أعلم].

نقل أنّه اتفق جماعةٌ، واجتمعوا بين الشيخ أبي سعيد والإمام أبي محمد الجُويني رحمهما الله تعالى في الحمام، فقال الشيخُ لأبي محمد: لِمَ طابَ الحمام؟ قال أبو محمد: لأنه ينظّفُ الإنسان، ويزيلُ عنه الأوساخ. قال الشيخ: أريدُ أحسنَ من هذا. قال أبو محمد: لأنه يَدخُلُه مثلُ جنابك الكريم، ويستريحُ فيه. قال الشيخ: أحسنَ من هذا أُريد. قال أبو محمد: فالشيخُ أعلم. قال الشيخ: إنّما طابَ الحمام لأنَّه اصطلحَ الضدّان، واتَّفقَ المُخالفان ـ يعني الماء والنار ـ فتعجّب أبو محمد من هذا المعنى اللطيف، ثم قال الشيخ أيضًا: لأنَّ من يدخلُه يتركُ جميعَ المال والملك، والمنصبَ والجاه، ولا يكون معه سوى سطلٌ وإزارٌ، وهما أيضًا على طريقِ العارية غالبًا[1].

أقول كأنه رحمه الله يُشير إلى مقام التجريد الذي هو أَصلٌ عظيم في السلوك، إذ لا يصلُ السالكُ إلى القصدِ إلاّ إذا ترك جميع ما سوى المقصود، ولا شكَّ أنَّ الحمامَ نموذجٌ لهذا المقام. [والله أعلم].

نقل أنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله رأى قصَّابًا ذبحَ غنمةً، وهي تضطرب وتُلَبِّطُ وتتأوَّه من التألُّمِ، فرقَّ لها قلبُه، ولم يأكل بعد ذلك اللحمَ.

نقل [أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله قال]: إذا رأيت الشيخ ساكنًا فلا تتبعه بالسكون والاطمئنان والتمكّن إلى أن يقعَ بينه وبين غيره شيءٌ ذا جاه ومنصب، فإن بقي على ما كان عليه فيظهر، وإلاّ فيظهر ما كان مخفيًّا فيه من الشرِّ والأضرار، أما إذا رأيتَ ميتَ الكلامِ ليس عنها منازعةٌ ولا مُخاصمة، فإذا رميت جيفة بينها تراها متنازعة متخاصمة بعضها مع بعض.

أقول: وقلَّما يخلو الإنسانُ عن الشرِّ، وإن كان بحقّه بالتكلّف والتصنّع، فإذا صار ذا منصبٍ وجاه يمدُّ رجلَهَ ويده، ويخرجُ إلى فعل ما كان فيه بالقوة،

---

(١) أسرار التوحيد ٢٤٩، ٢٥٠.

ويشيرُ إلى هذا مَنْ قالَ وأجادَ المقالَ[١]: .

الظُّلمُ من شيمِ النُّفوسِ فإنْ تجدْ ذا عفَّـــةٍ فلعلّـــةٍ لا يَظلـــمُ

[والله أعلم].

نقل أنّ رجلاً سمعَ أوصاف الشيخ ومناقبَهُ، فقصدَهُ، وجاء إليه من بعيدٍ، فلمّا حضرَ عنده رآه يأكل الحلاوة والسكر، ففسدَ فيه اعتقادُهُ، وتشوَّش ظنُّه، فعلم الشيخُ، وقال: تعالَ يا فلان، ولا تنظرْ إلى التنعّمِ الظاهر، وانظرْ إلى تواضعِ الباطن ورياضته ومجاهدته.

نقل أنه وصل إلى ضيعةٍ من أعمال نيسابور، وسأل اسمها، فقالوا: باب الحبيب. فقال: لا يجوزُ تركُ الحبيب، ونزلَ فيها، وبنى هناك موضعًا[٢].

نقل أنه أمرَ بتهيئةِ دعوة، ولمّا بسطوا السفرةَ، ووضعوا الأواني، اتَّفقَ الأصحابُ كلُّهم على ألاّ يحضروا، والشيخُ ينتظرهم، فقامَ ويدور حول السفرة، ويقول: إلهي، إن لم تدخلْ أحدًا في الجنة، فمن أين يكونُ لنعيم الجنة رونق؟ بل يكونُ أقلَّ رونقًا من سفرة أبي سعيد.

نقل أنه رحمه الله صعدَ المنبر لأجل الوعظ، وازدحم الخلق في المسجد حتّى ضاقَ، ولم يسعْ كلَّهم، فقام شخصٌ وقال: رحم الله امرأً يتقدّمُ من مكانه خطوةً. فقال الشيخ: ما قالَ الأنبياءُ والأولياءُ فقد ذكرَهُ هذه الرجل في كلمةٍ، وما بقي لنا كلامٌ، ونزلَ، ولم يتكلّم[٣].

نقل أنه رحمه الله يومًا من الأيام كان يجيءُ ويذهبُ، والأصحابُ يقومون كلّما يجيءُ ويذهب، فأشارَ إليهم بأن لا يقوموا، إذ كثرَ المجيءُ والذهاب، فبعضُهم كان يقومُ، وبعضُهم امتثلَ أمره، ولا يقوم، ثم الذين كانوا يقومون كلَّما يجيءُ ويذهبُ صارَ كلٌّ منهم مقتدىً، والذين لم يقوموا بقوا في مرتبتهم،

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي، انظر شرح الديوان ٤/ ٢٥٣.

(٢) أسرار التوحيد ٢٢٢.

(٣) أسرار التوحيد ٢٢٩.

ولم يترقّوا، وذلك لأنّه منعهم عن القيام له تواضعًا منه، والذين قاموا له تواضعوا له، والذين لم يقوموا لم يتواضعوا، فظهر الفرق.

نقل أنَّ الشيخ رحمه الله كان راكبًا على فرس على جواد، وعليه ثيابٌ فاخرةٌ، فجاء إليه فقيرٌ ينظر إلى فرسِهِ وأثوابه، وتعجَّبَ من حشمته، فاطّلع عليه الشيخ بنور الولاية ـ أي بإلهام الله تعالى ـ فنزلَ من الفرس، وخلعَ الثيابَ، وكساها ذلك الفقير، وأركبه على الفرس، ورمى الغاشيةَ على كتفه، ومشى في ركابِ الفقير، فخجلَ الفقيرُ عمّا فعله، ورمى نفسَهُ عن الفرس، فقال الشيخ: اعلمْ أن المشيَ والركوب عندي سواء، ولذا يسلمُ لي الرُّكوبُ على الفرس، غير تفاوت بينه وبين غيره من المراكب وبين المشي.

أقول: قد لوّح الشيخُ رحمه الله في هذا الكلام إلى أنَّ العارف إذا وصلَ إلى مقام التمكّن بحيث لا يغترُّ بزينة الدنيا وزخارفها، وهي لا تصيرُ حجابًا بينه وبين الله، وذلك لرسوخِهِ في المعرفة والمحبّة والتوجّه إليه تعالى، فلا حرجَ عليه حينئذٍ، إذا كان له من الدنيا شيءٌ، إذِ الدنيا كلُّها والآخرةُ أيضًا بنعيمها لا تحجبُهُ عن الله، وأمّا من لم يكن راسخًا متمكّنًا؛ بل هو معتمدٌ بعد، ولم يبلغ المرتبةَ المذكورة، فأدنى شيءٍ ممّا سوى المقصود الأَصليّ يصيرُ حجابًا، وكلّما يُكثرُ الالتفاتَ إلى الدنيا وزخارفِها يشتدُّ التعلّق بكثف الحجاب، ولذا يحتاجُ السالك في تلطيفِ الحجاب ورفعه إلى مجاهدةٍ كثيرةٍ، ورياضةٍ راضية، وأمّا الذين تركوا الدنيا رأسًا أولاً وآخرًا، وأعرضوا عنها، فلعدمِ الأمن من شرورها، والشيخُ أبو سعيد رحمه الله له طورٌ خاصٌّ بين المشايين المشايخ، مع اتفاقِ المُعتقد والمُنكر على ولايتِهِ وكراماتِهِ ومجاهداته وعباراته حتى لم يكنْ له نظيرٌ من الأولياء في المجاهدة إلاّ نادرًا، وإنه رحمه الله لم يدَّخرْ شيئًا للغد، ولم يملك ملكًا ولا عقارًا؛ بل كان تاركًا، جالسًا على باب التوكُّل، واللهُ تبارك وتعالى قد أفاضَ عليه إحسانَه، وأسبغَ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وذلك لم يكن قادحًا في ولايته، ولا مُفسدًا لمقام توكُّلِهِ. [والله أعلم].

نقل أنّه لمّا اشتهرت أحوالُه بين الناس، وانتشرَ صيته في الأطراف، أرسل

إليه شيخٌ من المشايخ واحدًا من تلاميذه ليتفحَّصَ عن أحواله، ويمتحنه، ثم يخبرُ شيخَه بما يظهرُ عنده، فجاء، وصادفه راكبًا على حمارٍ، وخلقٌ كثيرٌ خلفه وقدَّامه، فسلّم عليهم، وأخذ شوكةً ووضعها بالخفية تحت ذنب حمارِهِ، فجعلَ الحمار يرفسُ كما هو العادةُ، وضربَ الشيخَ على الأرض، فقامَ وركبَ، ثم فعلَ ذلك الرجلُ مثلَ ما فعل، والحمارُ كذلك ألقاه، ثم قام الشيخُ، وفعلَ الرجلُ ثالثًا مثلَ فعله، ووقع الشيخ من الحمار نوبةً ثالثةً، فدعا الشيخُ ذلك الرجلَ، وقال له: امشِ إلى شيخك، وقل ضربتني على محلِّ الامتحان ثلاث مرات، ولكن هل رأيتَ منّي غيارًا حيث يكونُ أصلُ هذا الشأن. فتمرَّغَ الرجلُ عنده، وتاب، وندم على ما فعل[١].

نقل أن جماعةً من الأكابر كانوا قعودًا في موضعٍ، ويذكرون كراماتِ الشيخ رحمه الله، فقال واحدٌ منهم لمُريدٍ له: امشِ إليه، وأبصرْ كيف تراه. فذهبَ المُريد، وهو على المنبر، فقال له: مرحبًا، قد جئتَ لتبصرَني وتتفحَّصَ عن حالي، فها أنا، فانظرْ إليَّ. فصعدَ الرجلُ المنبر، وقبَّلَ يدَ الشيخ، وتاب، ورجع.

نقل أنه كان للشيخ مُريدٌ، وكان تاجرًا ذا مالٍ وثروة، وقد أنفقَ على أصحاب الشيخ مالاً كثيرًا، وما انفتحَ إلى قلبِهِ بابٌ من المعرفة، ثم إنَّ الشيخ يوم الجمعة قصدَ الرَّواحَ إلى الجامع، ونعلُهُ كان منخرقًا، واحتاجَ إلى طَسُّوجٍ[٢] وجبة لأجل التشفيع، ولم يكن له، فأعطى ذلك الرجلُ هذا القدرَ، وتشفّعوا عليه الشيخ، ولما أدخلَ الشيخُ رحمه الله رجلَهُ في النعل، انفتحَ للرجلِ بابٌ من العرفان والشهود، فوقعَ الرجلُ مغشيًّا عليه ثلاثةَ أيام ولياليها، ثم بعد الإفاقةِ سأل عن الشيخ، وقال: كم قد صرفتُ، ولم أشمَّ رائحةً من المقصود؟ قال الشيخ رحمه الله: لأنَّك أنفقتَ لأجلِ غرضك، فما أصابَ

(١) أسرار التوحيد ١٩٢، ١٩٣.

(٢) الطَّسُّوج: ربع دانق. معرب. القاموس.

الموقعَ، وصرفتَ هذا القليلَ المحقَّرَ لأجلِ غرضِ غيرك، فلذا وقعَ موقعَ القبول، وحصلَ لك إلى المقصودِ وصول، وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ يجب أن يَسعى في مقصودِ غيرِهِ ليحصلَ مقصودُهُ، وأمّا إذا كان سعيُهُ محصورًا في تحصيلِ مقاصدِهِ، فربَّما يحصلُ، وكثيرًا لا يحصل. ثم قالَ: سعيُكَ لك شؤمٌ، ولغيرك مباركٌ.

وقال: إذا رأيتَ الفقيرَ مُشتغلاً لتحصيل مُراداته، فدعْهُ واهربْ منه؛ فإنّه فتنةٌ في نفسه، وبلاءٌ على الخلق.

وقال: لكلٍّ من الخلائق مرادٌ، ومرادي أن لا يكونَ لي مُرادٌ.

وقال: فضلُ العارفِ على غيره: أنَّ حديثَ غيرِهِ مع العارف، وحديث العارفِ مع الله تبارك وتعالى.

قال: قال الشيخ: إن الله تعالى يطردُ المحبَّةَ، ويجذبُهُ، ويرميه على الجنبِ، ثم من جنبٍ إلى جنب حتى يسكّنَهُ، فإذا سكنَ يفنيه، بحيث لا يبقى منه رسمٌ ولا أثرٌ، ثم يتجلّى بالنورِ الباقي لذلك التُّراب.

وقال: يلمعُ وقتَ النزع برقٌ من الهيبة، تنمحي فيه جميعُ معارفِ العارفين، وعلوم العلماء، وتصوف[1] أهل الصفاء، وبلاغةِ البلغاء، وطاعةِ المُطيعين، وولاية الأولياء، والصلاةِ والصوم، والعشقِ والمحبة، والتوكّلِ والتسليم، والصدقِ والإخلاص، والإيمانِ والإسلام، والذّاتِ والصفات، ولم يبق منها أثرٌ، كأنَّها لم تكن، فإنْ كان له ذرةٌ من الفناء، فيصيرُ له مركبًا، وهو بذلك المركبِ يقطعُ الطريقَ، ويصلُ إلى صفاته.

وقال: يمكنُ رؤيةُ الله تعالى، ولا يمكن رؤية الفقير، لأنَّ الله تعالى موجودٌ باقٍ أزلاً وأبدًا، وأمّا الفقيرُ فلا وجودَ له، فلا يُرى.

وقال: لا حديثَ أفضل ممَّا نقول، ولكن لو سكتنا لكان خيرًا.

---

(١) في الأصل: والتصوف.

وقال: يقول الناس: أوقاتُه طيبةٌ؛ ولكن إن حملوا ما حملناه، لفرّوا وانهزموا.

وقال: إذا سألوا عنكم يوم القيامة: من أنتم؟ فلا تقولوا: نحن من الصوفية، أو من العارفين، فإنّه دعوى، ويطلبونَ منكم شاهدًا على دعواكم، وحينئذٍ يشتدُّ الأمرُ، ولكن قولوا: نحن ضعفاء مساكين، ولنا مخاديم، وإنَّا لهم تبعٌ، فاسألونا عنهم، ثم فاسعوا أن تُدخلوا أنفسَكم في زمرة رجلٍ وإن لم تقدروا أن تكونوا من زمرةِ رجلٍ، فحرّكوا رأسًا إذا سمعتم من أحدٍ حديثَهُ؛ لتقولوا يومًا: نحن من الذين يحرّكون رأسهم عند استماعِ حديث الحبيب؛ لعلّكم تنجون بهذا المقدار[1].

نقل أنه قال: من رآني في ابتداءِ حالي صار صدّيقًا، ومن رآني في الانتهاء صار زنديقًا.

أقول: معناه أنَّ أفعالَه وحركاته وسكناته وأقوالَه في الابتداء كانتْ على وفق عقولهم، فلا جرمَ أنَّه من كان يراه ويتبعه في أحواله يصيرُ صدّيقًا، وأمّا لمّا ترقّى، وجاوز عمّا كان عليه في الابتداء، ما كانوا يفهمون عباراته، ولا يُدركون حقيقةَ أحواله وأفعاله، لأنَّها كانت فوقَ إدراك عقولهم، فلذلك كانوا يُنكرونه، وينسبونه إلى ما لا يليق، ويتزندقون بذلك، ويكفيك ناهيًا هذا السرّ حكاية موسى والخضر عليهما السلام، وما جرى بينهما، ولولا أنَّ الخضرَ عليه السلام كان يُؤَوّلُ لموسى عليه السلام ما رأى منه من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامة الجدار كما نطقَ به القرآن الكريم، لأنكره موسى عليه السلام، وبقي على إنكاره، لكن زالَ إنكارُه بتأويل الخضر عليه السلام، والحالُ أنَّ موسى عليه السلام كان مأمورًا، وأمّا أبو سعيد فلم يكنْ مأمورًا لأحد، مأمورًا بمتابعته وتصديقه، وإن ذكر تأويلاً لكلِّ ما كان مُنكرًا عند الناس في ظواهرِ عقولهم لصدَّقه قليلٌ، وأنكرهَ كثيرٌ، فزال الإشكال والارتياب. [والله أعلم].

---

(١) اسرار التوحيد ٣٨٧، وبقية الخبر صفحة ٣٤٣.

نقل أنّه قال: ماتَ الذين كانوا يعبدون الله تعالى، وأنا أيضًا متُّ معهم.

وقال شخصٌ من الصلحاء: رأيتُ الشيخَ في المنام، وأظنُّ أنّه كان بعد موته، فقلت: يا شيخ، كيف أفعلُ لأخلص عن النفس؟ فقال: لا تعملْ شيئًا لهذا؛ لأن الله تعالى إن قدّرَ لك هذا ـ أي الخلاص من النفس ـ يُوفّقُكَ لعملٍ يصيرُ سببًا لخلاصك عنها، وإن لم يقدّر ذلك، فلا ينتقصُ ذلك ولا يزداد، فعلم أن الله تعالى إذا قدّرَ شيئًا لشخصٍ يُلهمه الطلبَ والتحصيل، فبالحقيقة أنه يطلب، ثم يدلُّكَ ويُرشدك على الطلب، فهو الطالبُ، وهو المطلوب[١].

نقل أنّه وجع له ضرسٌ من أضراسه، حتى ما نامَ ليلةً إلى الصباح، فسُئل عنه، قال: لأنّي طالعت في كرّاسةٍ من كتابٍ، فأدّبني، وقيل: أتنكحُ المطلّقة؟ فتبتُ عن ذلك، وعرفتُ الحال[٢].

أقول: معناه قد ترك جميعَ ما سوى الله وطلّقه، حتى الكتابَ والمطالعة فيه، فإذا رجعَ إلى كتابٍ وطالعَ في شيءٍ، فكأنه أرادَ نكاحَ المُطلّقة، وذلك لا يجوزُ بلا تحليلٍ عند استيفاء الطلقات الثلاث. [والله أعلم].

نقل أنّه رحمه الله كان يَضربُ والدته، فقالت الوالدة: يا بني، لِمَ تضربني؟ قال: لتعرفي قدري، وتَشكري إذا لم أضربك.

أقول: في نقله تلك الحكاية إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يبتلي خالصَ عباده المُطيعين المحبّين له بأنواعٍ من البليات والمصائب، ليشكروا الله عند زوالها، ويوفّوا قدرَ نعمة العافية، لأن المتناولَ[٣] بعد التعبِ أعزُّ من الحاصلِ بلا طلب، وكأنَّ الحكمةَ في ابتلاء الله تعالى عباده إنّما هي هذا. [والله أعلم].

نقل أنّ شخصًا قال لصوفيٍّ شيئًا، فغضب الصوفيُّ، فقال الرجل: إذا لم تطقِ الحمل، فاخلع عنك ثياب الحمّالين. فأعجب الشيخَ، وقال للقائل: أعدْ

---

(١) أسرار التوحيد ٣١١.

(٢) أسرار التوحيد ٦٢، ٦٣.

(٣) في الأصل: لأن المشتاقة بعد التعب.

كلامَك. فأعاده، فنظر الشيخُ إلى أصحابه، وقال: اسمعوا ما يقول![١].

نقل أنّه قيل في مجلس الشيخ: إن فلانًا يُصلّي بالنهار، ويسرق بالليل. قال الشيخ: فلا عجب أن يتركَ السرقةَ ببركة صلاة النهار[٢].

نقل أنه وقع حريقٌ في سوق المَيْهَنَة واحترق، فقال الشيخ رحمه الله: الشكرُ لله على أنه لم تحترق المَيْهَنَة بتمامها، فإنّي نوبةً لبستُ السراويلَ من القيام، وأنَّ الحريق إنما كان بشؤمِ أني تركتُ السُّنَّة مَرّة، وذلك لأن لبس السراويل من القعود سُنَّةٌ.

نقل أن أبا القاسم الثعلبي رحمه الله جاء إلى المَيْهَنَة من نيسابور حافيًا لغلبةِ اشتياقِ الشيخ عليه، فاستقبله الشيخُ، والتمسَ منه أن يمسحَ الغبارَ من قدميه بمحاسنه، فامتنعَ الشيخُ أبو القاسم، فأقسمَ عليه الشيخ أبو سعيد وألحَّ حتى لم يقدرْ أبو القاسم على الامتناع، ورضي بأنْ يمسحَ أبو سعيد الغبارَ من قدميه بمحاسنه، فمسحَ، وقال: إذا أُغبرَتْ قدمٌ في سبيل الله، فينبغي أن لا تُمسحَ إلاّ بمحاسن أبي سعيد.

نقل أنَّ شخصًا من الفقراء رأى تبنةً على محاسن الشيخ أبي سعيد، وهو في المسجد، فشالها منها، ورمى في المسجد، فقال الشيخ: أما خفتَ من زاول إيمانك، فإن الوجهَ أعزُّ الأعضاء في الإنسان، وقد أمرَ الله تعالى بوضعِهِ على ترابِ المسجد حيث قال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وأنت ترمي التبنة فيه[٣].

نقل أنَّ الشيخَ كان في الحمام، فجاء إليه دلاّكٌ، وشرع يدلكُهُ ويُزيلُ الأوساخَ عن جسده، فجمعَ الوسخَ على عضده، [و] هو دأبُ الدلاّكين، ثم سأل عن الشيخ، وقال: ما الفتوة؟ قال الشيخ رحمه الله: الفتوة هي أن لا تجيء

(١) أسرار التوحيد ٢١٥، ٢١٦.
(٢) أسرار التوحيد ٣١١.
(٣) أسرار التوحيد ٣١٦.

الوسخ بالنظر. وكان في عهد الشيخ كثيرٌ من المشايخ رحمه الله، فسمعوا هذا الكلام، واستحسنوه، واتفقوا أنّه لم يقلْ أحدٌ في شرحِ الفتوّة أحسن من هذا[١].

نقل أنّه كان صوفيٌّ كامل، فأرسله جماعةُ الصوفية إلى الماء ليجيءَ لهم بالماء ليشربوه، فتعوَّقَ الصوفيُّ في المجيء، وأخذتْ جماعةُ الصوفية يذمُّونَه ويلومونه، وكلٌّ يقولُ شيئًا، فقال الشيخ: سبحان الله، الماءُ الذي لكم ما جاءَ بعدُ، فهو كيف يستقي لكم؟ فاصبروا، ولا تأكلوا لحمه حتى يجيء لكم بالماء[٢].

نقل أنّه كان بالمَيْهَنَة قاضٍ مُنكرٌ للشيخ ولا يزول، كان يُؤذيه، والشيخُ يحتملُ منه، وهو كان متحيّرًا في تحمّله، إلى أن استشهدَ بشهودِ الزور على أن المسكنَ الذي يسكنُهُ الشيخُ له، وفي يد الشيخ بالغصب، وأراد إزعاجَ الشيخ منه، فصدّقه الشيخ، وجمع أمتعتَهُ ليخرجَ منه، وكتب إلى القاضي هذا البيت العجمي:

آن تو ترا وآن ما نيز ترا جوز بهر دو ترا، خصومت آن بهر جيست؟

معناه: الذي لك فهو لك، والذي هو لنا فهو أيضًا لك، فإذا كان كلاهُما لك فلأيِّ شيءٍ هذه الخصومة؟

فلمّا وصلَ الكتابُ إلى القاضي، واطلّعَ على ما فيه، زالَ عنه القبضُ، وجاء إلى الشيخ وتاب.

نقل أنّه جاء ثلاثةُ رجالٍ إلى الشيخ، فالشيخُ أعزَّ واحدًا منهم، وأجلسَهُ على مسنده، وطلب الحلواء بالسكر، ويضعُهُ بيده في فيه، حتى إنَّ التلاميذَ من غاية إعزاز الشيخِ وكرامته له عرفوا أنه الخضر عليه السلام، وأمّا الآخران فأمرَ الشيخُ

(١) أسرار التوحيد ٣٠٣، وفيه: سألَ الشيخَ: ما المروءة؟ فأجاب الشيخ: ألا تحضر قذارة الرجل أمام وجهه...

(٢) أسرار التوحيد ٢٢٦ـ٢٢٧.

الخادمَ، فأنزلهما في منزلٍ ويكرمهما ويطعمهما إلى أن أرادا الرجوع، فأشارَ الشيخُ إلى أن هيّئوا لهما أسباب السفر، وزوّدوهما، وهو خرجَ معهما للتوديع، ثم حين الفراق قال لهما خفيةً: أنا أنغبن فيكما لأجلِ الخبز والملح، ثم أنتم تعلمون. والحالُ أنّهما كانا كافرين، فأسلما في الساعة، ورجعا مع الشيخ، وصارا تلميذين له.

نقل أنّ أبا سعيد رحمه الله بعدَ العبادة كان يقول: اللّهُمَّ، خلّص أبا سعيد عن أبي سعيد.

أقول: معناه أنّه يُريدُ ويسألُ من الله عزّ سلطانه أن يجعلَهُ غريقًا في بحر التوحيد، فانيًا في بقائه، بحيث لا يبقى له أثرٌ، ولا يُسمع له خبرٌ، وهذا نهايةُ درجات الصدّيقين والأولياء، وغايةُ مراتب الأصفياء، لأنّهم لا يجتهدون ولا يُجاهدون إلاّ للوصولِ إلى هذا المقام، والبلوغِ إلى هذا المرام، إذ ليس وراءَ عبّادان قرية[1]، وأمّا هذا المقام فلا نهاية لهَ، ولا أمدَ، لأنَّ التوحيدَ لا نهاية له، ولا يلزم له التحديد والتناهي، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرًا. [والله أعلم].

نقل عنه أنَّه قال: المعرفةُ أن يصلَ العبدُ إلى مقامٍ، ويتَّصفَ بصفةٍ لا يَحجبُهُ شيءٌ عن الحقِّ حتى إذا تأمَّلَ في باطن الأشياء يراها فانيةً، وإذا تأمّلَ في صفات فعله سنين لا يهتدي إلى صفاتِ ذاته كالرماد، فإنَّه من صفاتِ فعل النار، ولا يهتدي من لا يعرف النار ـ من عرف الرماد ـ إلى معرفة صفات النارِ من الإحراق والإضاءة وغيرهما، ولذا قالوا: لا يُعرفُ اللهُ تعالى إلاّ به. يعني إذا جاءتك المعرفةُ منه تعالى فإنَّك تعرفُهُ حينئذٍ، باقيًا بلا كيفٍ في صفاته، لأنَّ المعرفةَ تنعدمُ عند تخيل الكيف.

---

(١) عبادان: موضع تحت البصرة، قرب البحر الملح، وقد ذكر المثل في مجمع الأمثال ٢/ ٢٥٧.

وقال: تحيَّرَ قومٌ في هذا المقام إلى مقامِ المعرفة بلا كيف، ثم قنعوا بهذا التحيُّرِ؛ بل يسألون الزيادة فيه.

أقول: وهذا كما نُقل عن بعضِهم أنَّه كان يقولُ في بعض دُعائه: اللّهُمَّ، زدني تحيرًا فيك[1]. [والله أعلم].

قال: وهؤلاء لا يعلمون أنَّ القناعةَ بالتحيُّرِ أيضًا صارت لهم حجابًا، فلو كانت لهم بصيرةٌ لطلبوا الخلاص عن التحيُّرِ ليصلوا إلى بحر الحياة.

أقول: حاصلُ هذا الكلام أن التعلّقَ بشيءٍ من الأشياء حتّى بالتحيُّر فيه مانعٌ عن الوصول إليه معرفةً؛ بل لا بدَّ من رفع السترة، وإزالةِ العلائق حتّى تطلعَ شمسُ المعرفة من أفق العناية، ويضيءُ عالمُ قلبِ العارف إضاءةً بلا زوال، إذ هذه الشمس تُنير بلا أُفولٍ، فظهرَ أنَّ مرادَه عدمُ التعلّق والتقيّد بمقامِ التحيُّر، وإلاّ فلا شكَّ أن التحيُّرَ في معرفة الحقِّ يقال: لا يزولُ أصلاً؛ بل يزدادُ بازدياد المعرفة على خلافِ سائرِ المعارف، فافهم [فإنه] دقيقٌ جدًا، ولا يُدركُه إلاّ ذو طبعٍ سليمٍ، وإدراكٍ مستقيم. [والله أعلم].

قال: كلّما يوجدُ العارفُ والمعرفة يكون بالحقِّ من الحقِّ، وهذا مقامُ التجريد لا التوحيد، لأنَّه في مقامِ التوحيد لا يُوجدُ العارفُ ولا المعرفة، إذ مع توهّم وجودِ العارف والمعرفة لا يكونُ التوحيدُ توحيدًا؛ بل عند إشراقِ نورِ التوحيد تضمحلُّ جميعُ الأشياء ووجوداتها، كما أنَّ عند طلوع الشمسِ تتلاشى أنوارُ الكواكبِ، وهذا سرٌّ لا ينكشفُ إلاّ لذوي البصائر الذين أذابوا نفوسهم في ترقية المجاهدة، ثم صفّوها عن الكدورات البشرية، وخلّصوها عن الرذائل الجمسانية، ثم حلّوها بالمعارف اليقينية، واللّوامع الشُّهودية، والأنوارِ الكشفية، والأسرار الذوقية، وقليل ما هم، فطُوبى لهم وحُسنُ مآب، فليتني كنتُ في ممشاهم غبارًا من التراب.

---

(١) هو إشارة لقول ابن الفارض:

زدنـي بفـرطِ الحـبّ فيـك تحيُّـرًا وارحـم حشًـا بلظى هـواك تسعَّـرا

قال رحمه الله: ثم إذا عجزَ العبدُ عن الإدراك، كان ذلك من الجهلِ، والجهلُ في هذا المقام إيمانٌ، وإيمانُ هذه الطائفة كلِّهم يكونُ هكذا، فينكشفُ على العارف أولاً معرفةُ وجود الحقِّ، ثم يستولي عليه العجزُ عن الإدراك.

وقال: معنى ما قيل: (مَنْ عرفَ اللهَ كلَّ لسانُهُ) أنه إذا أُميتَ العارفُ عن الحياة التي تُحيي هذه الخلائق، ثم أحيا الحياة، ماتَ الخلقُ عنها، فحينئذٍ يتحقَّقُ عنده موتُ الخلق، فيخرسُ لسانُه في التوحيد عن التكلّم مع الموتى[1].

أقول: المُراد من حياةٍ يحيا بها الخلقُ هي الحياة الحاصلة من الغذاء والشراب الظاهرة، والموتُ عن هذه الحياة هو تقليلُ الغذاء والشراب المُسمّى عندهم بالرياضة في الظاهر، ثم قطعُ الغذاء والشراب المُسمّى عندهم بالرياضة في الظاهر، ثم قطعُ النظرِ والالتفات عن مُشتهيات الطبيعة، وقطع عرق الهوى عن أرض القلب بالكلّية المُسمّى بالرياضة الباطنة، وإلى موتٍ أدهى وأمرُّ من الرياضتَيْنِ. والمُرادُ بالحياة التي مات عنها الخلائقُ هي انكشافُ الأمور الغيبية بالإلهامات الواردة من البدء الفيّاضِ الذي لا يعتريه ملالٌ في الإفاضة، ولا يعرضه نقصانٌ في الإلهام، ثم تجلّي لوحُ القلب وانتعاشه بعد تصفيته عن صور الأغيار العينية بالصور والأنوار العلية، ثم استعداده لأن يصيرَ محلاً للتجلّيات الصفاتية، ومظهرًا للصفات اللاهوتية، بعد الانخلاعِ عن النُّعوتِ الناسوتية، والانقلاع عن الأوصافِ البشرية، فيا لها قصة في شرحها طول. [والله أعلم].

وقال: لا وجدانَ بدون الطلب، ولا طلبَ إلاّ بالعطاءِ والهداية.

وقال: قاعدةُ العبودية على نفي الوجود، إذ يثبتُ الحجابُ ما ثبتَ للعبدِ ذرَّةٌ من صفاته، والثبوت صفةٌ للحقِّ جلَّ جلالُه، وعمَّ نواله.

---

(١) كذا في الأصل، وفي أسرار التوحيد ٣٤٦: معنى من عرف الله كلَّ لسانه: يعني كلَّ لسانه عن خصومة الخلق، فإن رسول الله ﷺ كان أعرف الخلق ولم يكلّ لسانُهُ.

وقال رحمه الله: السلاطينُ لا يبيعون مماليكَم وأرقاءَهم، فاسعوا في أن تَصيروا عبيدًا له جلّ وعلا.

قيل له: هل يسقطُ العبدُ بالعصيان عن العبودية؟ قال: إذا كان عبدًا فلا يسقطُ بدليلِ أنَّ أبانا آدم عليه السلام لمّا كان عبدًا لم يسقطْ بالعصيان عن مقام العبودية، بخلافِ إبليس عليه اللعنة فإنّه لمّا لم يكن عبدًا، سقطَ عن العبوديةَ بعصيانٍ واحدٍ.

قال: إذا وصلَ العارفُ إلى مقامٍ يظنُّ أنّه لا يجدُهُ، فحينئذٍ يجده.

وقال: الجحيمُ نظرُكَ إلى وجودك، والجنَّةُ انتفاؤك عن وجودك.

وقال: ليستِ الأرضُ ولا السماءُ ولا العرشُ ولا الكرسيُّ حجابًا بين العبدِ والربِّ؛ بل الحاجب إنما هو عجبُهُ وأنانيتُهُ، فإذا رفعهما، وصلَ إلى مقصوده.

وقال: النفسُ هي منشأُ كلِّ وحشةٍ، فإن لم تقتلْها فهي تقتلُكَ، وإن لم تقهرْها، فهي تقهرك.

وقال رحمه الله: التلوّنُ والتنوّر، والحرقةُ والاضطرابُ كلُّها من صفات النفس، فإذا ظهرَ نورٌ من أنوارِ الحقيقة فلا يبقى تلوُّنٌ ولا حرقةٌ، ولا اضطرابٌ ولا زلزلةٌ، إذ ليس مع الله وحشةٌ، ولا مع النفس راحة.

وقال: إنك لا تبقى معه بلا حملٍ وتكلّفٍ، فإن حملتَ حملَ الحقِّ تصلُ إلى نقل الحقيقة، وتستريحُ غدًا، وإن لم تحمل ذلك، فتحمل على رقبتِكَ باطلاً حتى [لا] تستريحَ في الدنيا، ولا في الآخرة.

وقال: لا يزاد في الرزق؛ فإنه بالعطاء لا بالجدِّ.

قال: جرُّ الجبل بشعرةٍ أَسهلُ من الخروج عن النفس.

وقال: من عاملَ مع الحقِّ بالصدقِ يُكتب له بالتوقيعِ الولاية.

وقال: إذا وصلَ العبدُ إلى مقام التجريدِ ـ وهو تركُ جميعِ ما سوى الله تعالى ـ يسهلُ عليه ضبط مُلك سليمان عليه السلام ومملكته، ويصيرُ كلُّه معلومًا له، وإن لم يصلْ إليه، فلا يقدرُ على أن يجمعَ فضلةَ أردانه.

وقال: من يقدرُ أن يُجالسَ كلَّ أحدٍ، ويسمعَ عن كلِّ [أحدٍ]، ويُواكلَ كلَّ أحدٍ، ويستريحَ مع كلِّ أحدٍ فلا تطمعْ منه خيرًا، فإنه سلّم نفسَهُ إلى الشيطان.

أقول: وذلك لأن من يقدر على هذه الأشياء المذكورة فالبتة يكونُ موافقًا معَ كلِّ أحدٍ في مقتضى دينِهِ ومذهبِهِ واعتقادِه وأخلاقه وأفعالِهِ، وإلاّ فلا يمكن بينهما الملاءَمة والمُصاحبة، ولذا قيل:

وشبهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه[1]

وإذا كانَ المرءُ موافقًا مع كلِّ أحدٍ، فلا جرمَ أن يكون مُنافقًا مع الحقِّ، ويلزمه حينئذٍ متابعةُ الشيطانِ، والانقيادُ له، أعاذنا الله تعالى عن ذلك. [والله أعلم].

قال رحمه الله: إن الفتوّةَ والشجاعةَ، واللطافةَ في الطبع، والظرافةَ في الأخلاق أزهارٌ تُزهرُ في بستان الجذبة، والصلاةَ والصومَ، والجوعَ والسهر، والتصدّق إنّما تنبتُ في بستان الجدِّ والجهاد.

وقال: يَصلُ من الحقِّ جلَّ جلاله شيءٌ، ويصلُ منك إليه تعالى شيءٌ، فإذا كنتَ راضيًا بالأول، ومُخلصًا في الثاني، فلا شكَّ أنت سعيدٌ في الدارَيْنِ.

وقال: إذا لم يبقَ بين الحقِّ والعبدِ حجابٌ، يجيءُ الهوى ويصيرُ حجابًا، فإذا أردتَ رفعَ الحجاب بالكلّية، فلا بدَّ من رفعِ الهوى، حتى لا ترى في ثمانية عشر ألف عام غيرَ الله ـ أي موجودًا حقيقيًا.

وقال: إنَّ الله تعالى لا يبالي أن يجعل مئةَ ألفٍ من أصحاب النفس فداءً لصاحب قلب.

أقول هو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. **[والله أعلم].**

وقال: لو علمَ العبدُ كرمَ الله تعالى كما هو، وعرفَهُ تعالى حقَّ معرفتِهِ، لمات من الفرح.

---

(١) انظر الحاشية (١) صفحة ١٢١.

وقال: إنَّ الله تعالى يقولُ لعبدِهِ يوم القيامة: أيْ عبدي، ما أَعطيتُكَ الدنيا لا لأجلِ عزّتها وحقارتك، بل لأنّها لم تكن لها همَّةٌ واعتبار، وما كانت لائقةً؛ بل أعطيناها لمن كان بعيدًا عنّا، فصار بسببها أبعدَ. أيْ عبدي، أنت أعزُّ عليَّ من أن ألوّثَكَ بمثل الدنيا، فطبْ قلبًا، فاليومَ يومك، ولك ما تُريدُ وزيادةٌ. رزقنا اللهُ الوصولَ إلى هذا المقام ببركةِ عبادِهِ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

وقال رحمه الله: إنَّ جماعةً يدقُّون هذا الباب على اعتقادِ أنَّ فيه شيئًا، فلو لم يكنْ كما اعتقدوا لما دقُّوا، ولو لم يجدوا، لم يطلبوا.

وقال رحمه الله تعالى: إنَّ السعادةَ تحت رأسك، فاجعلْ رأسَكَ تحت قدمك، تصلْ إلى كنزِ السعادة.

وقال رحمه الله: لا يحسنُ خطيبان على منبرٍ، فيقول الله: أنا، فأنت لا تقلْ أنا، وهو كائنٌ ثابتٌ أزلاً وأبدًا، فأنتَ لا تَكنْ.

وقال رحمه الله: كنْ مع الزاهدِ زاهدًا، ومع الصوفيِّ صوفيًا، ومع العارف كيف تشاء.

اجهدْ ليسعَكَ قلبُ وليٍّ، فإنَّ اللهَ تبارك وتعالى ينظرُ في قلبِ الوليِّ سبعين مرَّة فوق ثلاث مئة وستين، فإنَّ هذا خيرُ المؤمنين كلِّهم، ولا يختصُّ بالولي بخلاف الأولى، وإذا كنتَ في قلبه، فتسري إليك بركةُ نظرِ الله، وتصير سعيدًا[١].

وقال رحمه الله: السلامةُ في التسليم، والبلاءُ في التدبير.

وقال رحمه الله: تأديبُ الأحمق كسقي الحنظل، فكلَّما تسقيه تزدادُ مرارتُهُ، ولا يكون حلوًا أبدًا، فإنَّ الله تعالى خلقَهُ مرًّا، وجبلَهُ على المرارة، فكيف يصيرُ حلوًا أوحامضًا أو طعمًا آخر؟ فكذلك الأحمقُ لا ينفعُهُ تأديبُ المؤدّب[٢].

---

(١) انظر أسرار التوحيد ٣٣٢.

(٢) أسرار التوحيد ٢٧٧.

وقال: العاقلُ من [إذا] عرضَ له شغل يتركُ سائر اشتغاله، ويتدبّر في ذلك الشغلِ بالبصيرة ليظهر له الصواب، وعند ظهورِهِ يتركُ غيره، كمن ضاعَ له دينارٌ، فإنه يجمعُ الترابَ ويغربلُه إلى أن يجدَ، فإذا وجده يأخذُ الدينارَ، ويتركُ التراب.

وقال رحمه الله: لا طريقَ أقربُ إلى الله تعالى من الفقر والافتقار، حتّى إذا توجَّه إليه الحَجَرُ بالفقر والانكسار، والعجز والافتقار، يتفجَّرُ منه العيونُ؛ بل الأنهار.

وقال رحمه الله: ألفُ صديقٍ قليلٌ، وعدوٌّ واحدٌ كثير.

أقول: كأنّه يُريدُ بالعدو الشيطان، أو من يدلُّ على الشرِّ كالصاحب السوء والنفس، فإنَّ إفسادَ كلٍّ من هؤلاء أكثرُ وأضرُّ من أن يدفعه إصلاحُ ألفِ صديقٍ أو أكثر. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: أيُّ حالةٍ خاليةٍ عن مجاهدةٍ أو علمٍ فضرُّها أكثرُ من نفعها، ومن لم يكنْ له شيخٌ، فلا فائدةَ فيه.

وقال رحمه اللهِ: يجبُ على المرءِ أن يشتغلَ طولَ عمره، ويرفعَ ما يشغلُهُ عن الحقِّ، ويوصلَ نفعًا إلى فقيرٍ، فإن سلكَ على هذا وصل إلى المقصود، وإلاّ يبقى حيرانَ لا إلى الدِّين ولا إلى الدنيا.

وقال رحمه الله: تنعُّمُ أهلِ الدنيا بالدنيا، وتنعُّمُ أهل الآخرة بالأحزانِ والمصائب[1].

و: الحزنُ حصنٌ وحمايةٌ من الحقِّ يُعيذُه من البلاء.

وقال: مَنْ نظرَ إلى الخلقِ بعين الخلق طالتْ خصومتُهُ، ومن نظرَ إليهم من جهة الحقِّ خلص.

---

(١) الأصل: أهل الآخرة في الدنيا بالأحزان. وانظر أسرار التوحيد ٣٢٧.

وقال: أيُّ قلبٍ لا سرَّ فيه من الحقِّ، ولا مناجاةَ له مع الحقِّ، ولا سماعَ له لكلامٍ، ليسَ فيه إخلاص.

وقال رحمه الله: من كانتْ حياتُهُ بالنفس، فيموتُ بالموت، ومن كانت حياتُهُ بالصدق والإخلاص فلا يموتُ أبدًا؛ بل إنما يُنقلُ من دارٍ إلى دار[١].

وقال: ليس بفقيرٍ من يكون فقيرًا.

أقول: يعني: الفقيرُ الكاملُ من فوَّضَ جميعَ أموره إلى الله تعالى، ويشتغلُ بما أُمِرَ، ولا تُعرض عليه حاجةٌ، ولا تُسألُ منه مسألة؛ بل يعلمُ أن علمَ الله تعالى بحاجاته يكفيه عن السؤال، وأيضًا ما قُدِّرَ له فيصلُ إليه، سألَ أو لم يسأل، وما لا، فلا؛ وإن سأل ألف سنة. فمعنى قوله: (الفقير من ليس بفقير) على ما ذكرنا أنَّ الفقيرَ من لا يكون محتاجًا ـ أي إلى عرضِ الحاجة ـ لأنَّ الفقير هو بمعنى الاحتياج، فالأول أفعالاً والثاني. وأمّا قوله عليه السلام: «الدعاءُ مخُّ العبادة»[٢] فإشارةٌ إلى مقامِ العوام بقرينة (العبادة) فإنّها في عرفهم تُطلقُ أيضًا على عبادة العوام، فالعبوديةُ للخواصّ، والعبودة للأخصِّ، فالدعاءُ للعوام، والتلميح والتفويض للخواص. والله أعلم.

وقال رحمه الله: من أرادَ السلوك إلى الله، فليكن عبورُه على أهل الفقراء.

أقول: أمّا أهلُ الفقر الظاهر من ذوي الحاجات، فبالترحّم والشفقة عليهم، والإحسان لله إليهم، وأما أهل الفقر الباطن، فبالاستعانة منهم، والسلوك بإرشادهم. [والله أعلم].

وقال: من سلكَ وحيدًا ـ أي بلا مرشدٍ ـ فهو كضائع في فلاةٍ، فلا يدري أين يتوجَّهُ.

وقال: لا يمكنُ ربطُ هذا الحديث ـ أي حديث العشق ـ على أحدٍ بحبل، ولا خياطته بالإبرة، بل لا بدَّ من الافتقار الدائم، والانكسارِ الذي لا يزول.

---

(١) انظر الحاشية (٣) صفحة ٥٥٧.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٦٨) في الدعوات، باب رقم (٢)، عن أنس بن مالك، وإسناده ضعيف، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال: إنَّما يتعبُ الإنسانُ، لأنَّه يطلبُ الشيءَ قبل وقته.

وقال: اطلبوا منه الثباتَ لا الكرامة، فإنَّه يصيرُ بالكرامة معجبًا.

وقال: لا تسلك هذا الطريق وأنت خائفٌ من عدم الوصول؛ فإنَّ المنازلَ تُقطعُ بالشطارة، وإذا قلتَ: (الله) فدعْ غيرَهُ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال: إذا وجدتم للفقير دينارًا أو درهمًا أو حبَّةً مشدودةً في خرقة، فاحموا عليه في النار، واكووا به جبهته وجنبَهُ تفضيحًا له.

وقال: ما يشغلُكَ من الله فهو شوم، والاشتغال به مذموم.

وقال: من ظنَّ أنَّه وصلَ بغيرِ الجهد فأخطأ، ومن ظنَّ أنَّه وصل بالجهدِ فأخطأ. وقد مرَّ شرح هذا الكلام[1].

وقال: لا طريق إلى الله للبطَّال.

وقال: كم من إنسانٍ يربّي نفسَه ويترك الجسدَ.

أقول: هذا كمن يشتغلُ بالرياضة والمجاهدة لا على طريقهما ولا بالإخلاص، بل لغرضٍ دنيويٍّ، فإنه يربي رذائلَ نفسه، ويهزلُ جسده. [والله أعلم].

وقال: هم كانوا يعملون بالقلب، ونحن نعملُ باليد.

وقال: جوهرُك طيرٌ مقفّص في قفصِ الإنسانية، يطير من هذا القفص على ذاك، ومن ذاك على ذاك، فافتحْ بابَ القفص، وخلّصْه عن هذا القيد والطيران.

أقول: إن الجوهر الناسوتية، وهو النفس الناطقة كطيرٍ مقفّص في هذا القلب، وهو يطيرُ - أي يتحرّكُ في طريق الفكر - من عالم الملك إلى المحسوسات، والملكوت إلى المغيَّبات، وفي كلٍّ من العالمين أجناسٌ

---

(١) انظر الصفحة ٤٦٤، و٥٤٧.

وأنواع، وأصنافٌ وأشخاص، فيتحرَّكُ من جهة الفكر من جنسٍ إلى آخر، وكذلك من صنفٍ إلى آخر. قال أبو علي بن سينا[١]:

هبطَتْ إليكَ من المحلِّ الأَرْفَعِ ورقـــاءُ ذات تعـــزُّزٍ وتمنُّـــعِ

وهذه الحركةُ الفكرية مخصوصةٌ بالإنسان، لا توجدُ في غيره من الملائكة والجنِّ، ولهذا تتفاوتُ مراتبُهم بتفاوت أفكارهم، ولهم ترقياتٌ بحسبها، بخلاف الملائكة والجنِّ، إذ لا ترقّي لهما؛ بل هما على حالةٍ واحدةٍ، من أول عمرهما إلى آخره على ما قيل. [والله أعلم].

وقال: ليس في هذا الطريق التفاتٌ إلى العاقبة والسلامة، والخلق والرفيقِ والصديق، والجنّة والنار، والقريب والأهل والعيال؛ بل إلى النفسِ، ولا يجوزُ أن يكونَ التوجُّهُ إلاّ إلى الله تعالى.

وقال: لا يوجدُ الحقُّ في العمران.

أقول: كأنه قصدَ معنى قولِ النبيِّ ﷺ، عن الله تعالى أنه قال جلَّ من قائل: «أنا عند المُنكسرة قلوبهم»[٢] الذين انكسرتْ قلوبُهم تَقطّعًا عن اللذَّات النفسانية، ومنعها عن الشهوات الزائلة، والحظوظ الفانية، وتصفيتها عن الكدورات الجسمانية، فتجدها خاليةً عَمّا سوى الله تعالى بأسرها كالديارِ البلاقع، والمواضعِ الخربة التي لا عمّالَ فيها، فلا يَسكنُها قاطنٌ، ولا يُقيمُ بها متوطّنٌ، ولأنَّ السلطانَ جلالُ الله وجماله، إذا أرادَ أن يتجلّى على قلب العارف العبد، يغسلُ ما فيه من الأغيارِ، ولا يتركُ فيه شيئًا من الغبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦ـ ١٠٧] ولا يبقى له التفاتٌ إلى أين ومتى، ثم يتجلّى له على مبلغ حالِهِ، وقدرِ قابليَّته، وصفاءِ طويَّته. رزقنا الله تعالى الترقّي إلى هذه

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/ ١٦٠.

(٢) تقدم تخريجه صفحة ٢٠٤ الحاشية (٤).

الذروة ببركة عبادِةِ الأولياء، وبحرمةِ نبيِّه فضل الرُّسل والأنبياء، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً تنفعنا، وتجازيهم بها يوم الجزاءَ، والله أعلم بحقيقة الأشياء . .

وقال رحمه الله: إنّ الله تعالى منزَّهٌ مقدّسٌ عن كلِّ ما يخطرُ بالبال، لأنَّ ما يخطرُ به فهو مخلوقٌ حادثٌ، والله تعالى مُتعالٍ عنه.

وقال: إنَّ الله تبارك وتعالى إذا تفضَّلَ على أحدٍ من عباده، يوردُ على باطنِه شيئًا يَجذبُهُ عمّا سوى الحقِّ جلَّ جلاله، ويقطعُهُ عن غيره، ثم يرفعُ قدرَهُ، ويحلّيه بالأنوار والحلي والعلوم والمعارف القدسية، ثم يُجلسُهُ على منصَّةِ القُرب، ويجلّيه على خلقه كما يريد ويشاء، يفعل الله ما يريد ويحكم ما يشاء، فيصيرُ في قبضة تصرفاته كالتبع، وإليه الإشارةُ بقوله عليه السلام: «المؤمنون هيِّنون ليِّنون»[1].

وقال: ينبغي أن يحصلَ للعبدِ تعلّقٌ إلى الحبيب الحقيقي، ويسلبه منه ـ أي من نفسه ـ حتى يدورَ في العالم بحرقةِ أحشائه، جاريةً دموعُهُ، رثيثًا حالُهُ، كثيرًا بلبالُهُ، منوَّرًا بالُهُ.

وقال: إذا ذكرتَ الله تعالى فمتْ عن جميع أغياره، فإنك قبلَ أن تموتَ عنها لا تَحُمْ، ولا تَدُرْ حول هذا الحديث، فإنَّ الذكرَ لله تعالى كثير، ولكنَّ الطالبَ قليل.

أقول: يُمكنُ أن يُقال: الطالبُ أيضًا كثير، وأما الواصلوان قليلٌ، ولك أن تقولَ: الواصلُ أيضًا كثير، وأمّا الرجوعُ بعد الوصول فقليل جدًا، فكم سفينةٍ انكسرتْ في هذا البحر فغرقت، ولم يصل إلى الساحل منها عودٌ؛ بل خبر! ولذا قيل: من صارَ خبيرًا لا يُرى منه أثرٌ، ولا يُسمعُ عنه خبر. ومثل هذا كمثل الفراشة، فإنَّها قبلَ الوصول إلى النارِ لا خبرةَ لها عنها، وعند الوصول ليس لها سوى الاحتراق والانعدام، فمن أين لها الشعورُ والإدراك؟ والحالُ أنْ لا وجودَ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٨٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٧٢، ٢٧٣، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٧٩.

لها حينئذٍ، واعلمْ أن هذا يدلُّكَ على أنّه لا يُمكنُ الإخبارُ عن معرفةِ ذات الله تعالى، وإن ذهبَ إلى جوازها طائفةٌ من المتكلّمين، وذلك لأنَّ من لم يصل إليها معرفته، فلا يدري، ومن وصلَ إليها معرفته فلا يبقى، وهذه سرٌّ خفيٌّ على كثيرٍ من العقول، فعليك بالتأمُّلِ والقبول. [والله أعلم].

وقال: لا يمكنُك الوصولُ إلى المعرفة وأنتَ لك، وتحبُّ نفسَك؛ بل لا بدَّ من تحمّلِ ذلَّ النفس، والسعي في تحقيرها وتجويعها، وتحمّلِ الأذى من الناس؛ لتضمحلَّ أنيّتُكَ، وتنعدمَ وتستريح في سوق طلبِ نقد[١] المعرفة، رزقنا اللهُ تعالى شمّةً منها بنورِ قدسه، إنه كريم.

قال: لا تجوز الغفلةُ عمّن لا يغفل عنك لحظةً، فالغفلةُ عن الله تعالى من أعظمِ المصائب، وأصعب المنكرات.

وقال: أقربُ الطريق إلى الله تعالى تطهيرُ النفس، والخروجُ من الأنّية كما تخرجُ الحيّةُ من جلدها.

وقال رحمه الله: الفقرُ هو الغنى بالله.

وقال: التصوّفُ بالتلقين، كالبناء بالسِّرْقين[٢].

أقول: مُرادُهُ أن التصوّفَ يجب أن يكونَ بالفعلِ لا بالقول. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الذكر نسيانُ ما سوى المذكور.

وقال رحمه الله: الإسلامُ هو الانقيادُ للحكم الأزلي.

وقال: الصدق وديعةُ الله تعالى بين الخلق، ولا نصيبَ فيه للنفس، لأنّه طريقٌ إلى الله، وقد حكم بأنه لا طريقَ لصاحب النفس إليه تعالى[٣].

وقال: التصوُّفُ عزٌّ في ذلٍّ، وغنىً في فقرٍ، وحريةٌ في عبودية، وحياةٌ في

---

(١) في الأصل: سوق الطلب نقد.

(٢) السِّرْقين: السرجين: الزبل. معرب. معجم متن اللغة، والخبر في أسرار التوحيد ٣٣٦.

(٣) أسرار التوحيد ٣٢٦.

موت، وحلوٌ في مرّ، فمن دخلَ في هذا الطريق ولم يسلك ـ كما ذكرنا ـ تزدادُ حيرتُهُ كلَّ ساعةٍ[١].

وقال: المروءةُ احتمالُ زلل الإخوان.

وقال رحمه الله: لو تكلّمَ في بيان ماهية التصوف سبعُ مئة من المشايخ؛ التعريفُ الأحسنُ الأتمُّ ما قيل: هو استعمالُ الوقت فيما هو أولى به[٢].

وقال: لا يصل الفقيرُ إلى الله تعالى إلاّ بها، ولا طريق لأحدٍ إليه تعالى بالاستقلال منه.

وقال: الرجالُ صبروا في كلِّ ما يلقاهم من البليّات، حتى انهزم الصبرُ عنهم.

أقول: ونعمَ ما أنشدوا:

وليس الفتى من ضاق عن صدره الصبر[٣]

قال: ثم صاحوا خلف الصبر وقالوا: أين نهرب؟ قف لترى الصبر، ولكن لا وصولَ إلى هذا المقام إلا بسنين كثيرةٍ، وأقلُّها أربعون سنة.

قال: ونحن نقول هذا الكلام بالسماع، والتجربة تحصل بالسماع أيضًا.

وقال الشيخ لشابٍّ: كيف تعمل إن وقعتِ السماءُ على الأرض؟ قال: ما أدري. قال الشيخ رحمه الله: أنا أجرُّ رأسي في جيب فنائي ولا أتنفّس؛ إذ ما أنا بشيء، ولا أُبالي من هذا الوقوع.

وقال رحمه الله: لا تحدّثوا هذا الحديث إلاّ مع من شمَّ رائحته، واجتنبوا عليه أهلَ النفس.

وقال: لا يليقُ بهذ الحديث إلاّ ذو همَّةٍ عالية، إذِ الخسيسُ متعلّقٌ بشيءٍ دنيٍّ حقير؛ بل لا يليق به إلاّ من لا يكون للدنيا والآخرة وما بينهما عنده مقدار،

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٦.

(٢) أسرار التوحيد ٣٣٨.

(٣) تقدم البيت صفحة ٥٤٨.

حتى إن قيلَ له: احرقِ الكلَّ، فيسرع في الإحراقِ في الساعة، ويضرم النارَ[١] في جميع ما سوى الحقِّ عزَّ وعلا، ويحرقُ ما دونه ليبقى الحقُّ وحده.

وقال رحمه الله: لو عرف الخلقُ أنَّهم عن أيِّ شيء يتخلّفون لصارَ لهم عزاءٌ يجتمعُ عليهم الناس للتعزية، ولكن لا يعلمون؛ لاختفاء ذلك عليهم.

وقال رحمه الله: قد ضلَّ أكثرُ الناس، وأعرضوا عن الحقِّ، ونظرُهُم إنَّما إليهم أنفسهم، وصار الخلقُ عبادَ المخلوق، فواحدٌ يعبد إنساناً، وآخر صنعةً، وآخر جاهًا، وآخر مكسبًا، وآخرُ هذه الدنيا، وآخرُ الآخرة، فأين من يعبدُ الله؟ لو علمنا أحدًا يعبدُ الله تعالى لذهبنا إليه مشيًا على الرأس، أو سبحًا على الوجه، ونلصقُ الوجهَ بتراب قدمه، فإن الأمراء غلّظوا رقابهم، والرؤساء رفعوا رؤوسهم، والعلماء صاروا مُعجبين بعلومهم وإدراكاتهم، واغترُّوا بطيالسهم، والزهادُ لا يتسعون في الدنيا، والعُبّاد لا يتكلّمون مع أحدٍ، والعارفون لا يعرفون أحدًا، وكلٌّ يقول أنا، وهذا عيبٌ عظيم، وشينٌ قبيحٌ فيهم، وهم غفولٌ عنه.

قيل في مجلسه: إنَّ فلانًا قد تابَ، ثم نقضَ التوبةَ. فقال رحمه الله: لو [لم] ينقضْهُ [الله] التوبةَ لما نقضها البتَّةَ[٢].

وقيل: ما التصوف قال رحمه الله: هو أن تحطَّ ما في رأسك، وتعطي ما في يدك.

قالوا: إذ نقومُ إلى الصلاة فأين نضعُ أيدينا؟ قال: على القلب، ووجّهوا القلبَ إلى الله تعالى[٣].

قيل له: متى ينجو العبدُ عن شرِّ رئاسته؟ قال: إذا أنجاه اللهُ، فإن ذلك بفضلِ الله تعالى لا بجهده.

---

(١) في الأصل: ويضرب النار.

(٢) أسرار التوحيد ٣٢٠، وما بين معقوفين مستدرك منه.

(٣) أسرار التوحيد ٣٢٣.

قيل له: كم الطرقُ إلى الله تعالى؟ فقال: بعدد كلِّ ذرّةٍ طريقٌ إلى الله تعالى، لكن ليس طريقٌ أَجملَ وأحسنَ وأقربَ من إيصالِ راحةٍ إلى قلب مسلمٍ أو مسلمة. قال: ونحن سلكنا في هذا الطريق[١].

نقل أن فقيرًا قال له: يا شيخ، أين أطلبُ اللهَ تعالى؟ فقال: أين طلبتَ وجدت ما وجدت، فإنْ خطوتَ خطوةً بالصدق في طريق الطلب، ففي أيِّ شيء تنظرُ ترى الله تعالى فيه[٢].

أقول: أي رؤيةً قلبية، وهي العلمُ والمعرفة، لا من شيءٍ إلاّ وفيه دلالةٌ على وجود الله تعالى ووحدانيته، وصفات الألوهية؛ ولكنَّ الضعفَ ليس إلاّ في الرائي وفي آلة الرؤية. [والله أعلم].

قيل له: ما الحكمة في أن الله تعالى أخفى بعض أوليائه وأظهر بعضًا؟ قال رحمه الله: أما الذي أحبَّه الحقُّ فيُخفيه، وأمّا الذي هو أحبَّ الحقَّ فيُظهرُهُ[٣].

أقول: أمّا الأول: فلأنه تعالى غيورٌ لا يُريد أن يعرفَ أحدٌ محبوبه، ولا ينتقضُ هذا بالنبيِّ محمد عليه الصلاة والسلام، لأنَّه بعثَهُ رحمةً للعالمين، فلأجل هذا أظهرَهُ ونشرَ ذكرَهُ في السموات والأرضين، وأشهرَ أمرَهُ في العالمين جميعًا.

وأمّا الثاني: فللدلالة على المحبَّةِ له تعالى، ليكون ذلك تخجيلاً لمن غفل عنه، واشتغل بالدنيا الدنية، وحجةً له عليهم، وزجرًا وتغليظًا لئلا يكونَ للمحجوبين حجَّةٌ على الله، ويقولون: لو لم يكن طريقٌ إلى محبَّتك، إذ لم يكن سبيلٌ إلى معرفتك، لأنَّ المعرفةَ سابقةٌ على المحبة، لأنه تعالى يبكّتهم بكثرة المحبّين حينئذ. [والله أعلم].

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٦، ٣٢٧.
(٢) أسرار التوحيد ٣٢٧.
(٣) أسرار التوحيد ٣٢٧.

قيل له: من الصوفي؟ قال رحمه الله: الصوفيُّ هو الذي ما فعل من الأفعال الظاهرة والباطنة المخفية يكون مرضيًا عنده[١].

وقال رحمه الله: معنى ما ورد عن النبيِّ عليه السلام: «تفكرُّ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»[٢] يعني: تفكّرُ العبدِ في فنائه ساعةً، خيرٌ من تفكُّره في وجوده سنة[٣].

أقول: وذلك لأنَّ معرفةَ فنائه غير الحقّ يُفيدُ اعتقادَ التوحيد، ومعرفةُ وجود غير الحقِّ وإثباتُ الوجود لغيره يُوجب الإثنينية، ولا شكَّ أنَّ التوحيدَ خيرٌ من الإثنية، نعم يردُّ على هذا التوجيه أنَّ التفكّر في الوجود سببٌ للاستدلال على وجود الصانع، بخلاف التفكّر في الانتفاء، إذ هو من الإعدام والعدم، لا يدلُّ على وجودِ الصانع لما تقرّرَ أنَّ العدمَ لا صانع له، ولكن يدفع ذلك بأنَّ الكلامَ في الانتفاء حال كونِ المتفكّر موجودُ الوجود ظلّيّ زائل، محتوش بعدمَيْنِ عدمٌ سابقٌ، وعدمٌ لاحق، فعلى هذا لا يفوت الاستدلال المذكور. [والله أعلم].

قيل له: ما العشق؟ فقال: العشقُ شبكةُ الحقِّ.

نقل أن جماعةً من الفسقة اشتغلوا بالفسقِ، وشربِ الخمر قريبًا من خانقاه الشيخ أبي سعيد رحمه الله، وعلَتْ أصواتُهم، وتعارضت صياحُهم مع ما كان من المزامير وسائر آلات الملاهي، وحصل لذلك تشوّشٌ عظيمٌ في الشيخ وأصحابه، ولم يكن يتكلّمُ فيهم، حتى أنَّ أصحابَه بعدما انعدم اصطبارُهم،

---

(١) أسرار التوحيد ٣٢٧.

(٢) ذكره االغزالي في الإحياء ٤/ ٤٢٣، وقال الحافظ العراقي: رواه ابن حبان في كتابه «العظمة» من حديث أبي هريرة، بلفظ «ستين سنة» بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ١٤٤، ورواه الديلمي في مسند الفردوس ٢/ ٧٠، (٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ: «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جدًا، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ: . . . خير من قيام ليلة اهـ. قال العجلوني في كشف الخفا ١/ ٣١٠: ذكره الفاكهاني بلفظ: «فكر ساعة». وقال إنه من كلام سري السقطي.

(٣) أسرار التوحيد ٣٤٥.

قالوا للشيخ: ما هذا السكوت؟ فقال: سبحان الله، إنهم استغرقوا في الباطل إلى حدٍّ ليس لهم عنكم خبرٌ، ولا يُبالون بكم، فلمَ لا تستغرقون أنتم في الحقِّ حتى لا تسمعوا أباطيلهم؟ ثم اشتغل بنهي المنكر[١].

أقول: هذا يدلُّ على أنَّ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر إنَّما يجبُ على من يخالطُ الناس ويُعاشرهم، ويطَّلعُ على بعض أفعالهم، وهذا لا يُمكن إلاّ لمن يكون في مقام الصحو، وأمّا من يكون مُستغرقًا في بحرِ المحبَّةِ سكرانَ من شرابِ المودَّةِ، أو مضمحلاً عند إشراق نور الجمالِ وبروقِ الجلال، فلا تبقى له مُخالطةٌ مع الناس، ولا معاشرةٌ معهم، فمن أين له الاشتغالُ بالأمر والنهي، بل ليس له نظرٌ إلى ما سوى المحبوب، أو ليس له النظرُ أيضًا، وأمّا مقام النبوّةِ، فلمّا كان مقامُ النبوّة لتكميل الناقصين المستعدّين لقبول الفيضِ المكمّلِ لهم، ولذا صار النبيُّ عليه السلام كاملاً في نفسِه، مُكمِّلاً لغيره، وكان له جهتان: جهةُ التجرُّد للاستفاضة من المبدأ الفياض، وجهة التعلّق لإفاضة بعض ما أُفيض عليه على ما دونه بقدر قابلياتهم، فلو كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام دائمَ الاستغراق، مستمرَّ السُّكر لتعطَّلَ المقصودُ من إرساله، وقد ظهرَ ممّا ذكرنا أنَّ النبوةَ أشرفُ من الولاية، لأنَّ النبيَّ عليه الصلاة السلام ينبغي أن يكونَ كاملاً في نفسه، مُكمِّلاً لغيره، وأمّا الوليُّ غيرُ النبيِّ، فيجبُ أن يكونَ واصلاً إلى ما قدِّرَ له من مراتبِ الكمال، ولكنْ لا يلزم تكميلِ الغير، ولذا نهايةُ الولايةِ بداية النبوة[٢]. [والله أعلم].

نقل أن أبا طاهر ابن الشيخ رحمهما الله تعالى لم يكنْ له هوسٌ إلى الكتّاب في زمان الصِّبا، فقال له الشيخُ في بعض الأيام: مَنْ يخبرني بقدوم الأضياف المسافرين فله عليَّ ما يُريد. فكان أبو طاهر يومًا على السطح، إذ رأى جماعةً من المُسافرين قادمين، فأتى الشيخَ، وأخبره بقدومهم، فقال الشيخ: ما تُريد؟ قال أبو طاهر: إرادتي أن لا أَمشي إلى الكتَّاب غدًا. قال الشيخ: لا تمشي.

---

(١) أسرار التوحيد ٢٤٨.

(٢) انظر الحاشية (٢) صفحة ٨.

فقال أبو طاهر: ولا في هذا الأسبوع. قال الشيخ: ولا في هذا الأسبوع. فقال أبو طاهر: ولا في هذا الشهر. قال الشيخ: ولا في هذا الشهر. قال أبو طاهر: ولا أمشي إلى الكتّاب أبدًا. فقال الشيخ رحمه الله: لا تمشي إلى الكتّاب أبدًا، ولكن احفظْ سورةَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١] لتقرأها من طرف اللسان، فطاب أبو طاهر قلبًا، وحفظ سورة ﴿إنّا فتحنا﴾ ثم توفّي الشيخُ رحمه الله بعد مدّةٍ، ومضى على موته زمانٌ كثيرةٌ.

فاتفق أن اجتمعَ على أبي طاهر دَينٌ كثير، فقصدَ نظامَ الملك[١] في مدينة أصفهان، وذهب إليه، ونظامُ الملك كان مُعتقدًا للشيخ أبي سعيد رحمه الله غايةَ الاعتقاد، فأعزَّ أبا طاهر، وأكرمه على ما يكون من الإعزاز والإكرام، والحالُ أنّه كان عنده حينئذٍ علويٌّ جاء إليه قاصدًا من غَزْنين، وكان مُنكرًا للصوفية، فشرعَ يذمُّ نظامَ الملك[٢]، ويلومُهُ في محبّته لهم، وإنفاقه عليهم، وقال: لِمَ تصرفُ أموالَك على طائفةٍ لا يعلمون أركانَ الوضوء وشرائطَ الصلاة، ولا خبر لهم عن العلوم الشرعية؟ فقال نظام الملك: لا تقلْ هكذا، فإنهم خيرُ الطوائف، لا يزالون مشغولين بالعبادات والطاعات، وأثنى عليهم ومدحهم، وأظهر فيهم اعتقادَهُ، فقال العلويُّ: أشرفُ الصوفية اليومَ في ديارنا إنّما هو أبو طاهر بالاتفاق، حتى أنَّ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله قال في حقِّه: إنه القطبُ، وهو غير قارىءٍ للقرآن. فأنكر عليه نظامُ الملك، وقال: بل هو قارىءٌ، والحال أنَّ العلويَّ كان يعلمُ أنه غيرُ قارىءٍ، ونظامُ الملك لم يكن خبيرًا بذلك، فاتفقا على أن يطلبوه ويمتحنوه بقراءةِ القرآن، فلمّا حضرَ أشارَ

---

(١) هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي أبو علي، الملقب بقوام الدين نظام الملك (٤٠٨ـ ٤٨٥) وزير عالي الهمة، تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير، وكان من حسنات الدهر، قال ابن عقيل: كانت أيامه دولة أهل العلم. اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند.

(٢) في الأصل: غزنين، وكان منكرًا الصوفية، فشرع يذم، وكان منكرًا الصوفية ويذم نظام الملك.

نظامُ الملك إلى العلويِّ ليختارَ سورةً من القرآن، ليقرأها أبو طاهر، وهو لم يدرِ أنّهم لماذا طلبوه، فاختار العلوي سورةَ ﴿إنا فتحنا﴾ فتنبَّهَ أبو طاهر بأنَّه امتحانٌ في قراءة ﴿إنا فتحنا﴾ وقرأها من الأول إلى الآخر، وكان يبكي في أثناء القراءة ويتضرّعُ، فلمّا أتمَّ القراءة انفعل العلويُّ، وخجل وانكسر في نفسه، وقام من الانفعال، وخرج من المجلس، وفرح نظامُ الملك، ثم سأل أبا طاهر عن بُكائه، فقال أبو طاهر: اعلمْ أيُّها الملك، أنّي غيرُ قاريٍ، وقصَّ له القصّةَ، وحكى له ما جرى فيّ حفظِهِ لسورة ﴿إنا فتحنا﴾ من أوّله إلى آخره، وقال: كيف تقول لشخصٍ ألهمه اللهُ تعالى قبل سبعين سنةً بأنَّ شخصًا من المُنكرين، يطعنون في ولده، ويعترض عليه بأنَّه لا يُحسن قراءةَ القرآن من اللِّسان، واحتاطَ له في ذلك اليوم، وأمره بحفظِ السورة لدفعِ اعتراضِ المُعاندين، فازدادَ اعتقادُ نظامِ الملك في الصوفية، ولا سيّما في أبي سعيد وأولاده وأتباعه[1].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله حين كان مَشغولاً بالرياضة والمجاهدة، كان يغيبُ عن أهله شهرًا أو شهرين، ولم يكن أحدٌ يطلّعُ على أحواله، وكان ابنُهُ أبو طاهر صبيًّا، وكان يحبُّ الشيخَ محبَّةً قوية، بحيث لم يكنْ يصبرُ عنه، فعند غيبة الشيخ كان يضربُ ويتقلقل، ويدورُ عليه، فوجدهَ نوبةً في خانٍ خراب، قد دخل مَخزنًا، وأغلق عليه الباب، فدقَّ الباب، ففتح الشيخُ، وأبصره غرقًا في العرق، إذ كان في أيام الصيف، وقال له: لِمَ أتَيتَ؟ قال أبو طاهر: لأني ما أطيق. فقال الشيخ: إذن تكون معي في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة. وأخذه في حجره، وطيّبَ قلبَه، ثم لمّا مات أبو طاهر رحمه الله بعد وفاة أبيه، وأراد أهلُه أن يدفنوه في بعض مقابر المسلمين بعيدًا عن الشيخ، وهو غافلٌ عن وعده الذي جرى بينه وبين أبي طاهر في طفولته، وحملوا جنازته، أنزل الله تعالى مطرًا عظيمًا، ومنعهم عن الذهاب بها إلى المدفن، فتوقَّفوا إلى أن يسكنَ المطر، وكان يزدادُ كلَّ ساعةٍ، ودامَ إلى ثلاثة أيام، فكلّما

(١) أسرار التوحيد ٤١٦.

كان المطرُ يقلُّ، وأرادوا أن يحملوا الجنازة أيضًا، يعودُ المطرُ ويؤذيهم، فتذكَّرَ واحدٌ من خواصِّ المُريدين ما قاله الشيخ: إنه يكون معه في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، وأخبرهم بالقصَّة، فكلٌّ من سمع هذا المقال من الشيخِ تذكّرَهُ، وأجمعوا على أن يدفنوه في جوار الشيخِ في القبة التي بنوها عليه، وعلموا أنَّ إنزالَ المطرِ ما كان إلاّ لأجلِ كرامة الشيخ، وتصديقِ وعده، فأمروا بحفر قبرٍ في القبة، في جنب قبر الشيخ، فانفتحت ثلمةٌ في قبر الشيخ رحمه الله، ونظر إليه الحفار، ولا جرَّ شيئًا لا يعلمه إلاّ الله تعالى، فسدّ الثّلمةَ بمدرةٍ، فصاح، وغاب عنه عقله، حتى حملوه إلى بيته على الأكتاف، ولم يتكلّمَ إلى أربعين، ولا فتح عينيه إلى أن ماتَ بعد الأربعين. ونُقل أنَّهم لما دفنوا أبا طاهر، انقطعَ المطر، وطاب الدنيا[١].

نقل أن الشيخ أبا سعيد رحمه الله لما دنَتْ وفاتُهُ، جمع الأصحاب وودَّعهم، وقال: عشتُ ألف شهر، والألفُ عددٌ كامل، ولا بدَّ من النقصان. ثم إنَّ جماعةً من الجنِّ قد استأنسوا بنا وبكلماتنا، بعضُهم يسكنون نيسابور وبعضهم بقريتنا[٢] هذه، فإن سمعتم صياحًا وبكاءً ومن دون أن تروا شخصًا، فاعلموا أنهم حضروا، والدمعُ كان يجري على خديه، ثم وصّاهم بوصيتهم، ثم نزل من يَطقِهِ[٣]، وركب فرسًا، ودارَ في جميع المواضع التي عبدَ اللهَ تعالى فيها، وودّعها باكيًا، ثم رجع إلى البيت، وصحّ بعض الأيام، ثم توفّي إلى رحمة الله، فسمعوا صوتَ البكاء وصياحًا كثيرةً ونياحةً، ولم يروا شخصًا، حتى أن أهل المَيْهَنَة كلَّهم سمعوا ذلك، فعلموا أنَّهم الجنَّ الذين أخبرهم الشيخ، ثم لمّا حملوا جنازةَ الشيخ توقَّفتْ في الهواء بين وقتِ طلوع الشمسُ إلى الضُّحى، فعلموا أن الجنَّ أوقفوها، ويمنعون عن الذهاب بها، فصبروا إلى أن قَضوا وطرَهُم، ثم ذهبوا بها إلى المدفن، ودفنوها. رحمه الله.

---

(١) أسرار التوحيد ٤١٩، ٤٢٠.

(٢) كذا في الأصل، وتقرأ: وبعضهم نفوسنا.

(٣) اليطق: كيس محشو بالتبن أو غيره، يستخدم بصفة فراش. موسوعة العامية السورية.

ونقل أنه كان للشيخ فرسٌ جموح، ما كان يلينُ لأحدٍ، ولا يخفض ظهرَهُ إلاّ للشيخ رحمه الله، فقطع المقود، وكان يدورها[١] تاركًا الأكل والشرب، والدموعُ تجري من عينيه هكذا إلى سبعةِ أيام حتى ضعف، وأشرفَ على الموت، فذبحوه وطبخوا لحمه، وأكله الفقراءُ تبرُّكًا به[٢].

ونقل أنَّ الشيخ رحمه الله لمّا توفّي أرسلَ الأستاذ أبو القاسم الثعلبي، وقال: إن تحرسني مثلَ ما كان يحرسُنا الشيخُ أبو سعيد[٣] رحمه الله، فإنّي أُلازمُكَ وأواظبُ مجلسَكَ، وإلاّ فلا. فسئل عن ذلك، قال: كان يوم عاشوراء أعطاني الشيخ رحمه الله طبقًا من الحلواء، وخمسةَ أرطال خبزٍ، وركوةَ ماء، وأمرني أن أحملَها وأُوصلها إلى عجوزةٍ فقيرة في نيسابور، فحملتُ الخبزَ على كتفي، وأخذتُ الطبقَ بإحدى يدي، والركوةَ بالأخرى، ولم يكن عليَّ قميصٌ، بل كنتُ مؤتزرًا بإزار، فوصلتُ في الطريق إلى موضع كان وحلاً شديدًا، فارتخى شدُّ الإزار، ولم يبق مجالُ الرجوع، ولا كان هناكَ موضعٌ على الأرض أضعُ ما كان بيدي، فتحيَّرتُ في شأني، إذ كنتُ بين ازدحام الناس، وأفزعُ من انكشاف العورة، فرأيت يدين بلا أن أرى شخصًا، وشدَّتا عقدَ الإزار، فمضيتُ وأوصلتُ الهديةَ ورجعت، فلمّا رآني الشيخ قال: لِمَ لا تحتاطُ في شدِّ الإزار؛ لئلا تحتاج إلى أن أجيءَ إليك في السوق لعقدِ إزارك؟ فسمع الأستاذ هذا الكلام، فذهب إلى أبي القاسم، واعتذرَ مما قال[٤].

نقل أن رجلاً من الصوفية رأى الشيخَ رحمه الله في المنام، وقال: كنتَ تحبُّ السماعَ، والآن كيفَ تعملُ بلا سماع؟ فقال الشيخ بالفارسية: .

آن الجهوري موصلي وصوت أرغنون آواز آن نگـار مـرا بـي نِيـاز كَـرْدْ

---

(١) أي كان يدور في القرية.

(٢) أسرار التوحيد ٤١١.

(٣) كذا في الأصل، والمستفاد من كتاب أسرار التوحيد ٤١٣ هو: أرسل الأستاذ أبو القاسم إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري ـ الذي طلبَ منه أن يعود إليه تلميذًا ـ وقال له: إن تحرسنا.

(٤) أسرار التوحيد ٤١٢، ٤١٥.

أقول: معناه: إنَّ حديثَ ذاك الحبيبِ قد أغناني عن ألحان الموصلي وصوت الأرغنون[١]. [والله أعلم].

نقل عن الشيخ عليٍّ السنجاري رحمه الله أنه قال: رأيتُ الشيخَ أبا سعيد رحمه الله في المنام قاعدًا على سريرٍ، قلتُ: يا شيخ، ما فعلَ اللهُ بك؟ فضحك وحرَّكَ رأسه ثلاث مرات، وقال هذا البيت العجمي:

گوي درميد آن فكند وخصم را جوكان نيستمي بُرد زين سُويَدْ به آن سُويَد مراد خوش‌گوي

أقول: معناه أنّه رمى الأكرة في الميدان، وانكسرت بجسم جاجوفته، فتدفع الأكرة من هو رآني ذاك على مراده، وكأنه يريد بالجاجوفة الاختيار، أي ليس لي اختيار، وأنا في قبضة تصرفه يتصرف فيَّ كيفَ يُريد. [والله أعلم].

نقل أن الأستاذ أبا القاسم ذهب إلى المَيْهَنَة لأجل زيارة الشيخ، وقال وهو من أهل نيسابور: نحن من أهل العلم وما أنصفنا معه، وقد ندمتُ ورجعت عمّا قلتُ فيه، أو فعلت معه.

ونقل أن الشيخَ رحمه الله أبا سهل[٢] الصعلوكي ـ وهو أحدُ الأئمة الشافعية رحمه الله ـ أنه قال: رأيتُ الشيخ أبا سعيد رحمه الله في المنام، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: كان الأمرُ أسهلَ ممّا ظننَّا.

ورآه فقيرٌ في المنام بعد مدّةٍ من وفاته، فقال له الشيخ: أنتم تأكلون خبزَ الفقراء، ولا تعملون بأعمالهم[٣].

أسألُ اللهَ الكريم الوهاب، الحكيمَ التوّاب، الحليمَ الرحمن الرحيم، ذا الملك الباذخ، والسلطان الشامخ، الذي له العزَّةُ والقدرةُ، والكبرياء والجبروتُ، والخلقُ والأمرُ، والغيب والشهادة، والملكُ والملكوت أن يفيضَ

---

(١) أسرار التوحيد ٤٣٠.

(٢) الأصل: أبي سهل.

(٣) أسرار التوحيد ٤٢١، وفيه: كلوا خبز الدراويش ولا تعملوا عملهم.

على روح الشيخ أبي سعيد وعلى أرواح جميع الأولياء والصالحين، والشهداءِ والصدّيقين شآبيبَ لُطفه وإحسانه، وسجالَ رحمته ورضوانه، ويرزقنا ببركتهم شمَّةً من محبته، ونبذةً من معرفته، ويذيقنا بقربهم إليه حلاوةً في طاعته، ولذّةَ المُشاهدة إلى وجه الكريم، بعد أن ينقلنا من ذلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة، ويجنِّبنا من مُتابعة الهوى، وموافقةِ النفس والشيطان، وحسبنا اللهُ ونعم الوكيل، والحمدُ لله وحده، وصلّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله أجمعين.

* * *